كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

إعداد / جيرار جورج لميير
تقديم / جمال الغيطاني
ترجمة / محمد عبد المنعم جلال

مقاهي الشرق



محمد عبدالمنعم جلال

مقاهى الشرق



اعداد : جيرار جورج ليمير

□ المشرف على التحرير : جمال الغيطانى



● العدد ٣٢٠ ● ابريل ١٩٩١ ●

كتاب اليوم

أسسه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الادارة

إبراهيم سعده

العدد رمضان ١٤١١ هـ

٣٢٠ ابريل ١٩٩١ م

نيسان

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشـــتراكات

جمهورية مصر العربيه

قيمة الاشتراك السنوى ١٦ جنيه مصرى.

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

باقى دول العالم واوربا والامريكيتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٦ ا ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم

المغرب	٢٠	درهم
لبنان	٧٥٠	ليرة
الأردن	٧٥٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	٥٠٠	قرش
تونس	١٤٠٠	مليما
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	١٤٠٠	ق.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس
سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة
غزة	١٠٠	سنت
ج اليمنية	٢٠	ريالات
الصومال سيبريا	٨٠	شى
السنغال	٦٠	فرنك
الامارات	٨	درهم
قطر	٨	ريالات
انجلترا	١٢٥	بنى
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	٥	مارك

فى الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	روبية
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرونات
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	سنتا
كندا امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك والشطر	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

■ الغلاف : من تصميم مدرسة الاستشراق الأوربى فى القرن ١٩١٩

■ غلاف أخير : محمد عفت

بالشـاى ، يدخل الشرق .
المجتمعات البورجوازية ، وبالقهوة .
يدخل العقـول .

● بـول مـوران ●
« طـريق الهـند »

الفهـــرس

■ تقــديم ■

مقـاهى القـــاهـرة

بقلم : جمال الغيطانى

« .. مقاهى القاهرة ، عالم فريد ، متشابك العناصر ، يحوى الملامح الإنسانية العامة ، وله أيضا سماته الخاصة جدا . فى مقاهى القاهرة يجلس الناس حول المناضد متواجهين ، يتبادلون النجوى ، والأحاديث ، والأشـواق الإنسـانية ، والمصـالح المـاديـة ، وقضـاء الحاجات ، وعقد الصفقات ، وثمة من تلفه الوحدة ، يجلس محملقا فى الفراغ ، وقد يحاول قهر وحدته بحديثه إلى جار لا يعرفه ، وربما لم تعش أكثر من حدود اللقاء .. » .

إلى أى عمق تاريخى ينأى عمر المقهى القاهرى ؟ لا يوجد مرجع تاريخى يحدد هذا ، ولم تخصص دراسة لرصد تضاريس هذا العالم المتكامل ، ولكن الذى لا شك فيه أن المقهى كان جزءا من الحياة القاهرية . منذ أن اتسعت القاهرة ولم تعد الحياة قاصرة فيها على الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم ، ولا شك أن المقهى كان موجودا بشكل مختلف عما نعرفه الآن ، فالقهوة التى استمد منها المكان اسمه لم تدخل مصر إلا فى القرن السادس عشر الميلادى ، قيل ان اول من اهتدى إليها هو أبو بكر بن عبد الله المعروف بالعيدروس ، كان يمر فى سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته ، فوجد فيه تجفيفا للدماغ واجتلابا للسهر ، وتنشيطا للعبادة ، فاتخذه طعاما ، وشرابا ، وارشد أتباعه إليه ، ثم وصل ابو بكر إلى مصر سنة ٩٠٥ هـ ، وهكذا أدخل الصوفية شراب القهوة إلى مصر ، واختلف الناس حول هذا المشروب الجديد ، هل هو حرام أم حلال .

حرم البعض القهوة لما رأوه فيها من الضرر ، وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة وفى سنة ١٠٣٧ هـ زار القاهرة الرحالة المغربى أبو بكر العياشى ووصف مجالس شرب القهوة فى البيوت ، وفى الأماكن المخصصة لها .

فى مطلع القرن العاشر الهجرى حسمت مشكلة تحريم القهوة أو تحليلها ، وانتشرت فى القاهرة الأماكن التى تقدمها ، وأطلق عليها اسم المقاهى ، ويبدو لنا ان هذه الأماكن كانت موجودة من قبل ذلك بمئات السنين ، ولكن لم يطلق عليها اسم المقاهى لان القهوة نفسها لم تكن دخلت إلى مصر ، كانت هذه الأماكن معدة لتناول المشروبات الأخرى كالحلبة ، والكركديه ، والقرفة ، والزنجبيل ،، ولم يكن الدخان معروفا أيضا حتى القرن الحادى عشر الهجرى ، ويحدد الاسحاقى المؤرخ المعاصر ظهور الدخان فى سنة ١٠١٢ هـ ، غير ان مشكلة الدخان كانت أكثر تعقيدا ، لقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه ، وكثيرا ما كان يطارد مدخنوه تماما كما يطارد مدخنو الحشيش فى أيامنا هذه ويذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١١٥٦ ، ان الوالى العثمانى اصدر اوامره بمنع تعاطى الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين ، وأبواب البيوت ، ونزل ومعه الأغا ، ونادى بذلك ، وشدد بالإنكار والنكال بمن يفعل ذلك ، وكان كلما رأى شخصا بيده آلة الدخان يعاقبه ، وربما أطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بما فيه من نار .

● القرن التاسع عشر :

ربما كان أدق وصف وصل إلينا عن المقاهى المصرية ، ما كتبه المستشرق الانجليزى ادوارد وليم لين ، فى كتابه « المصريون المحدثون » يقول « لين » الذى زار القاهرة وعاش بها فى مطلع القرن التاسع عشر « ان القاهرة بها أكثر من الف مقهى ، والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود ، ويقوم على طول الواجهة ، ما عدا المدخل ، مصطبة من الحجر أو الاجر تفرش

بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثة وعرضها كذلك تقريبا ، وفى داخل المقهى مقاعد متشابهة على جانبين أو ثلاثة ، ويرتاد المقاهى افراد الطبقة السفلى والتجار وتزدحم بهم عصرا ومساء وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ، ويحمل كل منهم شبكه الخاص وتبغه ، ويقدم « القهوجى » القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد ، او عشرة فضة للبكرج الصغير الذى يسع ثلاثة فناجين او اربعة : ويحتفظ القهوجى ايضا بعدد من آلات التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزة ، وتستعمل هذه الأخيرة فى تدخين التمباك والحشيش الذى يباع فى بعض المقاهى ، ويتردد الموسيقيون ، والمحدثون على بعض المقاهى ، فى الأعياد الدينية خاصة .. » .

وفى كتاب وصف مصر الذى أعدته الحملة الفرنسية جزء عن المقاهى فى زمن الحملة : « تضم مدينة القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق ، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى اما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة . وليست لهذه المبانى اية علاقة بالمبانى التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا إلا من حيث استهلاك البن على الرغم من ان هذا المشروب يعد ويشرب بطريقة مختلفة ، فليس فى هذه المبانى أثاثات على الإطلاق وليس ثمة مرايا او ديكورات داخلية او خارجية ، فقط ثمة منصات « دكة » خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، او أبسطة خشنة الذوق فى المقاهى الأكثر فخامة بالإضافة إلى بنك خشبى عادى بالغ البساطة .

ويبدو من وصف المقاهى هنا انها تشبه إلى حد كبير بعض المقاهى الصغيرة التى لا تزال قائمة فى قرى الصعيد الجنوبى ، لم يكن نظام الجلوس إلى مناضد وفوق كراسى متبعا ، ويبدو أن هذا النظام لم ينتشر إلا بعد إنشاء البارات المخصصة لتقديم الخمور ، ولكن لم ينتقل نظام الجلوس من المصطبة إلى استخدام المقاعد والمناضد مباشرة انما مر بفترة كانت تستخدم فيها الدكك الخشبية العريضة ، ولا يزال مقهى الفيشاوى القديم وبعض مقاهى

القاهرة الفاطمية تحتفظ بدكك خشبية عريضة تتسع الواحدة منها لجلوس خمسة أو ستة أشخاص متجاورين ولا تزال إحدى الدكك الخشبية فى مقهى الفيشاوى تحمل تاريخ صناعتها فى سنة ١٩١٠ أى فى بداية هذا القرن ، ويكاد المقهى القاهرى يشبه فى ذلك الحين ، المقهى البغدادى الآن ، والذى يستخدم للجلوس فيها الدكك الخشبية ، غير أن الأدوات التى كانت مستخدمة فى مقاهى القاهرة عند بداية القرن التاسع عشر ، لم تتغير كثيرا حتى الآن .

....

● أدوات المقـهى :

فى أى مقهى قاهرى يطالعنا رف عريض فوق « النصبة » أى المكان الذى يتم فيه إعداد المشروبات ، هذا الرف يحمل عددا من النرجيلات ، وهى آلة التدخين ، وشكل النرجيلة لم يتغير كثيرا عما كان عليه منذ مائتى عام ، فى بداية القرن التاسع عشر ، كانت النرجيلة تتكون من عدة أجزاء ، أولها الجوزة الهندية (وقد حل مكانها الآن البرطمان الزجاجى) ويوضع فيها الماء ، ثم القلب النحاسى الذى يحمل الحجر المصنوع من الفخار ، ويوضع فوقه الدخان ، وفوقه جمرات الفحم ، وتتصل أنبوبة التدخين بقلب النرجيلة (الآن يسمى الأنبوب « اللى ») ويوضع فى مقدمته فم من الكهرمان ، لقد كانت صناعة النرجيلة فى بداية القرن التاسع عشر دقيقة ، ويوجد نماذج عديدة فى دكاكين التحف القديمة بخان الخليلى الآن ، كل منها كالتحفة الفنية ، بعضها صنع من الفضة ، والنحاس ، والزجاج الثمين ، ويوجد حاليا قسم بأكمله من شارع المعز لدين الله فى القاهرة يضم عددا من المتاجر تختص بأدوات المقاهى ، ولوازمها .

وفى بداية القرن التاسع عشر كانت القهوة تقدم فى « بكرج » موضوع على جمر فى وعاء من الفضة أو النحاس يسمى « عازقى » ويعلق هذا الوعاء فى ثلاث سلاسل ، ويقدم الخادم القهوة ممسكا أسفل الطرف بين الابهام والسبابة ، وعندما يتناول الفنجان والطرف

يستعمل كلتا يديه واضعا شماله تحت يمينه ، وتستعمل مجمرة تسمى « منقدا » من النحاس المبيض بالقصدير ، ويحرق فيها البخور أحيانا ، وكانت القهوة يضاف إليها أحيانا الحبهان ، أو المصطكا ، أما الأغنياء فكانوا يضيفون إليها العنبر ، أما الآن ، فالقهوة تقدم في كنكة من نحاس ثم تصب فى فناجين خزفية صغيرة ، وفى معظم المقاهى تقدم القهوة مجردة ، بدون إضافة أى شيء إليها ، ولكن هناك تاجرا واحدا للبن في القاهرة الآن يقوم بخلط البن بالحبهان ومواد أخرى تضفى عليها مذاقا خاصا لطيفا ، ويعتبر هذه التركيبة من الأسرار ، ودكانه يقع فى إحدى حوارى الغورية بالقاهرة القديمة .

ومن أهم المشروبات فى المقاهى الآن « الشاى » ، وهو مشروب حديث ، لم يدخل مصر إلا فى القرن التاسع عشر ، وأثناء الجلوس بأى مقهى قاهرى ، تصل إلى الأسماع نداءات يطلقها الجرسون مناديا العامل الذى يقف وراء المنصة ، يبلغه بطلبات الزبائن ، ولكل مشروب اسم معين ، والشاى له أكثر من اسم :

— شاى بنور : أى شاى عادى فى كوب زجاجى .

— شاى ميزة : أى شاى مخلوط باللبن .

— شاى بوستة : أى شاى غير مخلوط بالسكر ، إنما السكر فى إناء صغير مجاور له .

— شاى كشرى : أى توضع أوراق الشاى الجافة فى مياه مغلية مع السكر .

أما القهوة فيكتفى للنداء بالآتى :

— واحد سادة : أى بدون سكر .

— واحد مضبوط : أى متوسط المذاق .

— واحد زيادة : أى السكر أكثر قليلا .

كما تسمى القرفة « فانيليا » . والنرجيلة الصغيرة « حمى » ، والنرجيلة التى تحمل كمية أكبر من الدخان الخالص « عجمى » ، أما الدخان المخلوط بالعسل « المعسل » فينادون عليه قائلين :

« واحد بورى » ، أو « المصرى » وبالفعل فهو شكل مصرى خالص من التدخين ، وان كان يشبه دخان « الجراك » المعروف فى الهند وبعض بلدان الجزيرة العربية ، غير أن الجراك عبارة عن فواكه عطنة مخلوطة ببعض الزيوت ، أما المعسل ، فهو دخان « تمباك » مخلوط بالعسل الأسود .

....

● أبـو زيـد .. والظـاهـــر :

حتى انتشار المذياع فى مصر ، كانت المقاهى أماكن مخصصة لرواية قصص السيرة الشعبية والملاحم ، وكان أصحاب المقاهى يستقدمون رواة القصص ، وبعضهم يعرف باسم « الهلالية » لتخصصهم فى سيرة ابو زيد الهلالى ، والبعض الآخر يعرف باسم « الظاهرية » نسبة إلى الظاهر بيبرس ، وقد ظهرت قصة الظاهر بيبرس فى القرن السادس عشر الميلادى ، وهى قصة طويلة تمتاز بخيال خصب ، ووقائع طريفة ، فضلا عن انها تصور حياة المجتمع المصرى بدقة ، وظهرت قصص اخرى هى سيرة الأميرة ذات الهمة ، و « الدرة الملكة فى فتح مكة المبجلة » ، و « غزوة الإمام على مع اللعين الهضام ابن الحجاف » ، و « فتوح اليمن المعروفة برأس الغول » .

ونلاحظ أن قصة الظاهر بيبرس قد انتشرت وذاعت بعد الغزو العثمانى لمصر عام ١٥١٧ ، ويبدو انها كانت كرد فعل على الهزيمة ، والجراح التى لحقت بالناس ، ونفس الظاهرة نلاحظها بالنسبة لملحمة « ابو زيد الهلالى » التى انتشرت بعد هزيمة الثورة العرابية ، والاحتلال الانجليزى لمصر ، انه رد فعل الشعب تجاه حدث أليم ، وشكل لحماية الذات بواسطة الفن .

كانت هناك قصص اخرى تروى بالمقاهى ، مثل قصة سيف ابن ذى يزن ، وألف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة العبسى ، وكان المنشدون يتخذون آلات الطرب كالربابة والعود ، وقد قضى الراديو على هذه الطائفة قضاء مبرما .

يمكن القول ان العصر الذهبى لمقاهى القاهرة كان فى النصف الأول من هذا القرن ، خاصة فى العشرينات ، والثلاثينات ، وكانت القاهرة الجميلة ، الهادئة وقتئذ ، تزخر بالعديد من المقاهى ، منها مقهى نوبار والذى توجد مكانه الآن مقهى المالية ، وكان مجمعا للفنانين ، وكان عبده الحامولى يقضى أمسياته فيه.، ومعه بعض أصحابه ، ومنهم باسيلى بك عريان الذى افلس بعد أن انفق نصف مليون من الجنيهات ، وأحيانا كان يضيق بزبائن المقهى فيطلب من صاحبه أن يخليه من الزبائن له ولأصدقائه فقط ، على أن يعوضه الخسارة .

وفى ميدان الأوبرا ، كان يوجد مقهى السنترال ، وموضعه الآن جزء من ملهى صفية حلمى فى ميدان الأوبرا ، وهذا الملهى يضم أيضا مقهى من طابقين حتى الآن ، ويعرف باسم كازينو الأوبرا ، وكانت تعقد به ندوات أدبية لنجيب محفوظ كل يوم جمعة ، وعندما التقيت به لأول مرة كان ذلك فى ندوة الأوبرا الشهيرة هذه .

أما مقهى متاتيا فمكانه فى ميدان العتبة الخضراء ، وكان يؤمه جمال الدين الأفغانى ، والإمام محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى المحامى المشهور ، ثم ارتاده عباس العقاد ، وإبراهيم المازنى ، والشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة عكاظ التى كانت تصدر فى القاهرة ، وفى ركن المقهى مطعم صغير للفول والطعمية كان رواد المقهى يجدون فيه حاجتهم من الطعام .

وعلى مقربة من الموسكى ، قهوة القزاز ، ومكانها الآن بعض المبانى القائمة عند الجانب الأيمن من الشارع بالقرب من العتبة ، وعامة زبائنها من أهل الريف ، الذين يجلسون فيها ويتاملون النساء القاهريات المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء ، اثناء اتجاههن لشراء حوائجهن من اكبر شوارع القاهرة التجارية فى ذلك الوقت ، شارع الموسكى.، وبالقرب من مقهى القزاز كان يوجد محل حلوانى اسمه اللبان ، وكان زبائنه من العسكريين القدامى ، والعجائز المتصابين ، بعضهم حارب مع عرابى ، وبعضهم شهد حرب

الحبشة ، ومنهم من حضر فتح السودان ، كانوا يجلسون يتابعون المارة ، ويتبادلون الذكريات المستمدة من سنوات عمرهم البعيدة .

وفى شارع محمد على يوجد مقهى « التجارة » ؛ وهو من أقدم مقاهى القاهرة ، ويزيد عمره الآن عن مائة وعشرين سنة ، ولا زال قائما حتى اليوم ، ومعظم رواده من الموسيقيين العاملين فى الفرق التى تتخذ من شارع محمد على مقرا لها ، هذه الفرق التى يطلق عليها ، فرق حسب الله ، وحسب الله هذا كان أحد الموسيقيين بجوقة الخديو إسماعيل ، وعندما خرج من الخدمة شكل أول فرقة للموسيقى تتقدم الجنازات والأفراح .

وفى نهاية شارع محمد على ، امام دار الكتب ، مقهى الكتبخانة ، وكان من روادها حافظ إبراهيم ، والشاعر عبد المطلب ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وكان من رواد هذا المقهى ايضا الشيخ حسن الآلاتى ، وكان الشيخ يرتاد مقهى آخر بحى السيدة زينب ويطلق عليه اسم المضحكخانة ، ويشترط لدخول مجلسه وضع رسالة فى التنكيت والقفش ، حتى إذا حازت عنده قبولا ضم مقدمها إلى مجلس النادى ، وقد جمع الشيخ حسن الآلاتى كثيرا من نوادر المضحكخانة فى كتاب طبع فى نهاية القرن الماضى ، ويحمل نفس الاسم المضحكخانة .

وخلف دار الكتب كان يوجد مقهى بلدى صاحبه رجل عرف بهوايته لمصارعة الديوك ، وكان من رواده بعض الأثرياء الذين يشاهدون ما يقدمه من عروض ، وفى شارع الصليبة القريب كان يوجد مقهى الأتراك ، ومعظم زبائنه من الباشبوزق الذين كانوا يؤجرون انفسهم من بيت محمد على للحرب ، وفى شارع محمد على ايضا مقهى عكاشة ، وهذا المقهى انشىء فى الأربعينات ، بناه أولاد عكاشة أصحاب الفرق المسرحية المشهورة ، وكان مقهى مزودا بأجهزة استماع للموسيقى ، يجلس الزبون إلى المنضدة ، ويضع السماعات إلى أذنيه ، ويطلب سماع اى اسطوانة يرغبها ، لقد ادرك الزمان هذا المقهى بخطواته الثقيلة ، فاصبح مجرد مقهى عادى به آثار من العز القديم .

وفى حى الحسين ، مقهى الفيشاوى الشهير ، وعمره الآن يتجاوز المائة عام ، وكان يتكون من واجهة انيقة ودهليز طويل حوله مقاصير صغيرة صفت فيها موائد رخامية ، ودكك خشبية ، وكانت شهيرة بالشاى الأخضر والأحمر الذى يقدم فى أكواب زجاجية صغيرة ، وفى شهر رمضان يكثر رواده من الفنانين والكتاب والناس العاديين وفى ايام الشهور العادية ، كان للمقهى سحره الخاص ، وداخله يخيم هدوء يمت إلى الأزمان البعيدة الجميلة تؤطره هذه التحف العربية المتناثرة فى المكان ، وامامه يجلس الحاج فهمى الفيشاوى يدخن باستمرار النرجيلة التى لا تنتهى أبدا ، وعلى بعد خطوات منه حصانه العربى الأصيل ، وفوقه اقفاص الحمام الذى كان مغرما بتربيته ، لقد صدر قرار بهدم هذا المقهى بعد عام ١٩٦٧ ، ولم يستطع الحاج فهمى أن يواصل الحياة حتى يرى نهاية مقهاه ، فمات قبل ان يرتفع أول معول للهدم بايام قليلة . ولحقه على الفور الحمام الذى كان يربيه . كان من اشهر رواد المقهى الأديب العربى نجيب محفوظ ، الذى كان يخلو إلى جوه الهادىء المعبق بالتاريخ يوميا اثناء عمله بمكتبة الغورى القريبة عندما كان يعمل فى وزارة الأوقاف ، من الشخصيات التى ارتبطت بالمقهى أيضا عم إبراهيم كان رجلا قصيرا ، ضريرا ، يتاجر فى الكتب ، وكان سريع النكتة ، فى ليالى الثلاثينات يجلس إلى عدد كبير من الرواد ، ويبادلهم هذا الشكل الفكاهى من الحوار ، والمعروف فى مصر ، باسم « القافية » وكان يرد عليهم كلهم ويهزمهم ، لقد عرف مقهى الفيشاوى العديد من الشخصيات ، بعضها باق فى ذاكرة التاريخ ، والكثير منها رحل إلى دروب الصمت .

على مقربة من الفيشاوى كان هناك مقهى قديم وغريب ، يقع تحت الأرض ، واسمه مقهى سى عبده ، وكان دائرى الشكل ، يضم عدة مقصورات ، تتوسطها نافورة مياه ، وقد وصف نجيب محفوظ هذا المقهى فى روايته العظيمة ، الثلاثية ، حيث كان يلتقى كمال عبد الجواد بصديقه فؤاد الحمزاوى ، لقد اندثر هذا المقهى تماما ، ومكانه الآن بعض المبانى الحديثة .

ومن المقاهى الشهيرة فى القاهرة القديمة والباقية حتى الآن ، مقهى عرابى الذى يقع بميدان الجيش ، عند نهاية الحسنية ، وعرابى صاحبه كان أحد الفتوات المشهورين فى أوائل هذا القرن ، وقد بلغ من سطوته ان مأمور قسم الظاهر لجأ إليه يوما يطلب حمايته لان أحد الأجانب هدده ، وكان الأجانب يحاكمون أمام محكمة خاصة في ذلك الوقت ، ومن رواد مقهى عرابى نجيب محفوظ ، حيث يلتقي بأصدقائه القدامى ، وزملاء طفولته ، وفى هذه الجلسة التى تتم كل يوم خميس تلعلع ضحكات الأديب الكبير ، ويبدو مرحا ، سريع النكتة ، ولا يطرق هذه الجلسة من الشبان إلا عدد محدود جدا عرف طريق المقهى الذى يستعيد فيه اديبنا الكبير ذكرياته وقصص شبابه مع رفاق الزمن القديم ، غير انه انقطع عن الانتظام في حضور هذه الندوة الأسبوعية منذ عامين ، والسبب ، أزمة المواصلات في القاهرة ، التى تعوق اديبنا الكبير عن الوصول من بيته فى العجوزة إلى ميدان الجيش .

وفى مواجهة مسرح رمسيس « مسرح الريحانى » كانت تقع قهوة الفن ، وفيها البؤساء من الفنانين ، والكومبارس ، والنساء الضاحكات ، كانت هناك مارى منصور ، وزينب صدقى ، ودولت ابيض ، وأمينة رزق ، وعزيز عيد ، وفاطمة رشدى ، واحمد علام نقيب الممثلين .

اما مقهى « ريش » الذى لا زال موجودا حتى الآن ، فكان من اشهر مقاهى القاهرة .

وحتى أربعينات هذا القرن يوجد عدد كبير من المقاهى فى روض الفرج ، مقاه جدرانها من الخشب ، محاذية للنيل ، وفى كل منها عدد من فنانى شارع محمد على ، يعرضون فيها الغناء والمونولوجات ، ومنهم حسين المليجى ، ونعمات المليجى ، ولهلوبة ، وزينب فلفل ، وغيرهم .

ويُوجد فى شارع محمد على مقهى للمنجدين ، وفى باب الشعرية مقهى لا يرتاده إلا عمال الافران البلدية ، وبجوار سينما كايرو فى القاهرة مقهى يؤمه الخرس فقط الذين فقدوا نعمة النطق ، واشهر

مقاهى النرجيلة فى القاهرة الآن ثلاثة : الندوة الثقافية بباب اللوق ، وأخرى تحمل نفس الاسم بمصر الجديدة ، ومقهى ثالث بشارع أحمد سعيد بالعباسية .

وإذا ما رحلنا إلى الخمسينات فسنجد مقهى أنديانا فى الدقى ، وكان مقرا لندوة أدبية يومية محررها الناقد الراحل أنور المعداوى ، وكان من رواد هذه الندوة رجاء النقاش ، وسليمان فياض ، ومحمد أبو المعاطى أبو النجا .

والآن انحسرت الندوات الأدبية التى كانت تعقد فى المقاهى ، لم يكن متبقيا منها إلا ندوة نجيب محفوظ مع شباب الأدباء فى مقهى ريش ، كل يوم جمعة ، وحتى هذه الندوة توقفت منذ أن قرر صاحب المقهى إغلاقه يوم الجمعة من كل أسبوع .

بالقرب من قهوة ريش ، مقهى آخر يلتقى فيه عدد كبير من المثقفين والأدباء والصحفيين ولكن بشكل غير منتظم ، وهو مقهى « الندوة الثقافية » ، وهو مشهور بالنرجيلة ، ويوليها اهتماما خاصا ، فى نفس الوقت الذى لا تعنى فيه المقاهى الأخرى بهذا النوع من التدخين .

● وحدة إنسانية :

لقد ولى العصر الذهبى للمقهى ، ولكن هذا لا يعنى تقلصها ، أو انحسارها ، صحيح ان المقاهى التى تفتح حديثا نادرة للغاية ، كما ان محلات تقديم المشروبات ووجبات الطعام السريعة تنتشر الآن ، ولكن لا تزال اكثر من خمسة آلاف مقهى فى القاهرة تعج بالزبائن والرواد ، كل مقهى منها يمثل وحدة سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وإنسانية ، فيه تصب كل العناصر التى يتشكل منها المجتمع ، الراى العام للناس يتشكل فى المقهى ، وخلال الفترات التى ينتخب فيها أعضاء البرلمان يكون المقهى هو المكان الذى تنطلق منه وتتركز فيه الدعاية ، ويطوف المرشح بمقاهى المنطقة ، يجلس إلى الرواد ويتحدث إليهم ويتودد إليهم ، وقد يدعو كل الجالسين لشرب الشاى أو القهوة .

ويرتبط المصريون بالمقهى ارتباطا كبيرا ، ولكل منهم مقهاه المفضل الذى يقع عادة بالقرب من سكنه أو مقر عمله ، قال لى أحد العاملين بهيئة الأمم المتحدة انه عندما ذهب إلى نيويورك فى أواخر الخمسينات شعر بفراغ غريب ، ثم أدرك بعد حين ان السبب افتقاده للمقهى ، والجلوس به ، وطاف بنيويورك حتى عثر على مقهى يونانى فيه طابع مقاهى حوض البحر المتوسط الذى يقترب إلى حد ما من المقهى العربى فى مصر ، ولدهشته فوجىء بوجود عدد من المصريين يرتادون المقهى ، وكان عدد المصريين فى نيويورك كلها وقتئذ لا يتجاوز الثلاثين ، وفوجىء انهم اتخذوا مقرين للجلوس ، المقر الأول مقهى ذلك اليونانى ويرتاده الصعايدة ، والمقهى الثانى قريب ويرتاده ابناء الوجه البحرى .

فى المقاهى يتخذ البعض مقرا ثابتا لأعمالهم التجارية ، مثل السماسرة ، والمقاولين ، كما يطوف بها الباعة الجائلون يحملون بضاعتهم التى تتشكل من أقلام الحبر والنظارات ، والمحافظ الجلدية ، وسلاسل المفاتيح المعدنية ، وعندما يدرك التعب أحد هؤلاء الباعة يأوى إلى مقعد ملتمسا بعض الراحة ، وفوق ملامحه يبدو الشقاء والكد .

يرى البعض ان المقاهى أماكن يتبدد فيها الوقت ، وتعطل الإنتاج ، ولكننى إذ أركن إلى أحد مقاهى القاهرة القديمة ، أحاول تلمس معالم هذا الزمن الرائق الحلو الذى نفتقده الآن فى الضجيج والزحام ، وإيقاع الحياة السريع اللاهث ، ان المقهى نموذج مصغر لعالمنا الذى يضج بكل ما تحتويه دنيانا .. » .

□ □ □

النرجيلة

« .. عرفت النرجيلة منذ خمسة عشر عاما ، عرفتها كصديق صامت ، يأنس إليه الفؤاد عندما ينوء تحت وطأة الأحزان والأكدار ، صديق يساعد العقل على التركيز ، واقتناص شوارد الفكر من هنا وهناك ، بدون أن يفرض مطالب خاصة ، أو إزعاجات ، أو يمر بمراحل التقلب من حب وكرم وبغض ، إذا ما تضاعفت الوحدة تبعث قرقرة المياه ونسة ، وتوحي الجمرات المتوهجة بحدود عالم سحرى ، مبهم ، عرفت النرجيلة فى آخر زمانها ، فلا شك أنها تذوى ، ويدهسها إيقاع العصر السريع ، وفى كل بلد ذهبت إليه كنت أبحث عن النرجيلة ، عرفتها فى مقهى هافانا بدمشق ، وفوق جبل قاسيون ، أرقب الأفق الأخضر البعيد من خلال صحبتها ، نرجيلة دمشقية أنيقة بزخارفها ، ودقة صناعتها ، أما النرجيلة البغدادية فى مقهى الأرفلى بشارع السعدون فهى غنية بالتمباك ، خشنة المظهر ، يشرف على تقديمها رجل عجوز ، يحيط خصره بفوطة حمراء . صامت دائما وكأنه يؤدى طقوسا خاصة لا يجوز الاطلاع على مكنونها . أما النرجيلة القاهرية فهى إنسانية فى مجتمعها ، لها مجتمع خاص يتجمع حوله الأصحاب ، أصحاب من نوع خاص يجمعهم هواية تدخين النرجيلة ، وبعد ان كانت تقدم فى أماكن خاصة ، وفى أزهى الأشكال انزوت الآن فى مقاه قليلة ، أما النرجيلة التركية فقد كادت تختفى ، ولا تقدم إلا فى عدد قليل من المقاهى ، خشنة المظهر ؛ ذلت بعد عز كبقايا الامبراطورية العثمانية ، يقبل عليها شباب الهيبز الأوربيين وكأنها أعجوبة ، ينفثون دخانها ويحملقون إلى مياه القرن الذهبى من موقع ذلك المقهى تحت كوبرى جلطة .

قد تختلف النرجيلة من هنا إلى هناك ، ولكنها بشكل عام آخذة فى الاضمحلال ، والزوال . مع زحف إيقاع العصر السريع ، على روح الشرق التاملية ولن يمضى زمن طويل حتى يولى عصر النرجيلة تماما .

● التبـغ :

كانت البداية من أمريكا ، عندما رأى البحارة الأوربيون هنود القارة الجديدة يدخنون هذه المادة التي تبعث دوارا خفيفا ، التبغ ، ومنها انتقل إلى اوروبا ، ثم إلى الشرق ، وظهر الدخان في مصر سنة ١٠١٢ هـ ، واثار ظهوره خلافات حادة بين علماء المسلمين ، وتمسك معظمهم بتحريمه ، ولا زال الوهابيون يحرمونه حتى الآن ، وكانت الأوامر تصدر بمنعه احيانا ، في حوادث سنة ١١٥٦ هـ ، يذكر الجبرتي ان الوالي العثماني اصدر امرا بمنع التدخين ، ونزل معه الأغا ، وتابع بنفسه المنع ، حتى انه كان يعاقب المدخن بإطعامه الحجر الذي يوضع فيه الدخان بما فيه من النار ، لكن المتصوفة تعصبوا للدخان ، كما تعصبوا للقهوة والشيشة من قبل ، ونظم ابو الذهب البكري قصيدة في الدخان :

هات اسقني التبغ ان نبع الصفا سحرا
حتى اضرر منه وهو اغشاء
واستجل انوار شمع من
قد زانه قامة بالحسن هيفاء
لعل نار أسى بالبعد قد وقدت
يوما يكون لها بالقرب اطفاء

ولم تكن لفائف التبغ معروفة وقتئذ ، إنما كان التدخين يتم بواسطة المشبك ، او النرجيلة ، وكان المدخنون يحملون الشبك اما بين ايديهم ، او مع الخادم خلفهم إذا كانوا اثرياء ، ويبلغ طول قصبة التدخين - كما يصفها ادوارد لين - أربعة اقدام أو خمسة ، ويغطى بالحرير الذى تحد طرفيه سلوك ذهبية محبوكة بالحرير الملون ؛ أو تحدهما ماسورتان من الفضة المذهبة . ويتدلى من الغطاء الحريرى في الحد الأسفل شرابة حريرية ، وكان هذا الغطاء يبلل بادىء الأمر بالماء فيبرد بالتبخر الشبك وبالتالى الدخان ، اما الحجر الذى يوضع فيه التبغ فهو من الآجر ولا زال يصنع من نفس المادة حتى يومنا هذا ، وكان يوضع تحت الحجر صينية

نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصير من النار ، أما « الفم » فيتكون من قطعتين أو أكثر من الكهرمان الفاتح اللون ، يصل ما بينهما زخارف من الذهب المرصع بالمينا والحجر اليماني واليشب والعقيق ، وخلاف ذلك من الأحجار الكريمة ، والفم أثمن جزء في الشبك وقد يرصع بالماس . وكان الشبك يحتاج إلى تنظيف متواصل ، شأنه في ذلك شأن البايب الآن ، لهذا كان كثير من الفقراء يعيشون على تنظيف الشبك ، ويبدو أن العائلات المسماة بالشبكشي كانت أصلا تتاجر في الشبك ، أو تقوم بتصنيعه ، وهناك سمة مشتركة بين الشبك والنرجيلة وهي طول قصبة التدخين وبعد الحجر عن المدخن ، ويبدو أن ذلك ناتج عن الطبيعة الحارة للبلاد الشرقية ، بعكس البايب الغربي ، الذي يحيطه المدخن بيديه فيسري إليهما الدفء من الحرارة المنبعثة في الخشب ، لقد انقرض الشبك الآن تماما ، وأصبح معلقا في المتاحف على الجدران ، أو في مراكز بيع الإنتاج الفولكلوري القديم ، خاصة في بغداد ، حيث يضم المركز الفولكلوري انواعا متعددة من الشبك ، ولا شك ان النرجيلة ماضية في الطريق نفسه ، فبعض النرجيلات الثمينة ، المصنوعة من الزجاج الملون ، والمرسوم عليها صور بعض سلاطين الأتراك او الحكام العثمانيين . او بعض المناظر الطبيعية ، اما نراها الآن في المتحف ، أو معروضة في بيوت الأثرياء .

النرجيلة مشتقة من لفظ « النارجيل » الاسم الذي يطلق على ثمر جوز الهند ، يمكن القول ان ترجمته الحرفية تعني « الجوزة » وهو الاسم الذي تعرف به النرجيلة الشعبية في مصر ، لانها كانت مكونة فعلا من ثمرة جوز هند مفرغة ، وتثقب مرتين ، ثقب يوضع فوقه الحجر ، وثقب تنفذ من خلاله انبوبة خشبية يتم من خلالها استنشاق الدخان الذي يمر خلال الماء الموضوع في الجوزة نفسها ، وصف الرحالة والعالم الدانمركي كارستين نيبور « الجوزة » المصرية ، التي لم تتغير ملامحها حتى أوائل هذا

القرن ، وعندما ارتفعت اسعار ثمار الجوز فاستبدل به كوز صفيح فارغ ، أو زجاجي ، وهذا ابسط الأشكال الشعبية للنرجيلة ، ويدخن بواسطته المعسل ، وهو الدخان الممزوج بالعسل ، ويعرف في المقاهي المصرية باسم « البوري » أو « المصري » ، يقول كارستين نيبور ان العامة يدخنون الجوزة للتدفئة أيضا ، ولكن النرجيلة الأنيقة التي تستبدل فيها الجوزة ببرطمان زجاجي فان كرستين نيبور يطلق عليها « النرجيلة الفارسية » ، ويقول ان اثرياء فارس يتخذون هذه النرجيلة وكثيرا ما تكون كلها مصنوعة من الفضة ، أو النحاس ، وتوجد في خان الخليلي الآن نرجيلات من النحاس المنقوش ، يمكن أن يدخن منها عدة أشخاص في وقت واحد ، عن طريق عدة ليات تخرج منها ، ومثل هذه النرجيلات تستخدم في بعض بلدان الجزيرة العربية خاصة اليمن والسعودية ، ويقول نيبور ان شيراز كانت مشهورة بصناعة النرجيلات الزجاجية الأنيقة ، وأحيانا كانت توضع فيها زهور مختلفة الألوان مثبتة من الداخل ، والنرجيلات الفارسية كانت منتشرة في الهند أيضا حتى القرن الماضي ، غير أن ادوارد لين يقدم إلينا وصفا ادق للنرجيلة في مصر .

الشيشة كلمة فارسية تعني الزجاج ، وهو الاسم الذي تعرف به النرجيلة الآن في مصر ، وهذا الاسم نتيجة للوعاء الزجاجي الذي يملأ بالماء إلى قدر معين ليمر الدخان من خلاله ، ويقول ادوارد لين ان التدخين يتم من خلال انبوبة طويلة لينة « تسمى لى » . ويغسل التمباك عدة مرات بالماء ، ثم يقطع ويوضع في حجر الشبك وهو رطب ، ويوضع عليه جمرتان أو ثلاثة ، ويقول لين ان للتمباك عطرا لطيفا مقبولا ، لكن شدة استنشاق الدخان في هذا النوع من التدخين يضر الرئة الضعيفة ، ان الوصف الذي كتبه ادوارد لين منذ حوالي مائة وخمسين عاما لم يتغير كثيرا حتى الآن ، ولكن الذي تغير هو شكل النرجيلة ، ونوعية الدخان ، حتى الخمسينات كانت هناك أنواع متعددة من التمباك ، عجمي ، ولاذقاني (نسبة

إلى اللاذقية) وازميرلى ، وهندى ، ويمنى ، وعدنى ، ولكن الآن تنقسم الشيشة فى مصر إلى نوعين رئيسيين ، عجمى وهو نوع خاص من الدخان مصدره إيران أو تركيا ، ويوضع بكمية أكبر فوق الحجر ويلف بورقة تمباك صحيحة لم تقطع بعد أن تبل بالماء . وتشبه الشيشة العجمى مثيلاتها فى دمشق وبغداد واستامبول ، لكن نوعية التمباك الذى يصل إلى مقاهى القاهرة أردأ ، ولهذا فإن النرجيلة العجمى يعتبر دخانها قاسيا ويحتاج إلى صدر قوى لتحمله ، اما النوع الثانى فهو الشيشة « الحمى » ، وكمية الدخان فى الحجر هنا اقل ، ونوعية الدخان اهدا ، وهذا هو النوع الأكثر انتشارا الآن .

واشهر مقهى فى القاهرة لتدخين النرجيلة الآن مقهى الندوة الثقافية فى ميدان باب اللوق ، وكان صاحبه محمد حسنين يمتلك مقهى بناه فى سنة ١٩٢٠ بشارع منصور بالقرب من مكان الغرفة التجارية الآن ، ثم هدم المقهى عام ١٩٥٩ ، وانتقل ابناؤه رشاد وجلال وعلى إلى هذا المقهى القائم حتى الآن ، والذى يؤمه عدد كبير من الكتاب والفنانين من هواة تدخين النرجيلة ، لكن حتى منتصف القرن كانت هناك أماكن متعددة ، مشهورة لتدخين النرجيلة اهمها مقهى الأوبرا ، او كما كان يعرف فى الثلاثينات والأربعينات باسم كازينو بديعة نسبة لصاحبته بديعة مصابنى ، كانت تقدم فيه النرجيلات للزبائن ، كل زبون له « لى » خاص به مكتوب فوقه اسمه ، لا يدخن به شخص آخر ، وكان الحجر يقدم محفوفا بالزهور ، وفى الماء توضع ثمرات من الكرز ، وكان يجلس بالمقهى عدد من كبار رجال السياسة ، والاقتصاد ، والأدباء وأهمهم نجيب محفوظ المدخن العريق للنرجيلة ، وكان منظرا مالوفا أن ترى السيدات المحجبات يجلسن بهذا المقهى ينفثن دخان النرجيلات بوقار ، بينما تمر بديعة مصابنى بنفسها تتاكد من وفرة الجمر ، وإراحة الزبائن ، كانت هناك مقاه اخرى مشهورة بالنرجيلة ، مثل مقهى عرابى فى ميدان الجيش ، ومقهى الفيشاوى فى الحسين ،

والذى كان يجلس امامه المرحوم فهمى الفيشاوى لا يفارق الفم فمه ليلا ولا نهارا ، كان ذلك بعد أن فارق الشباب وهجر الفتونة والشقاوة ، وكان هناك مقهى نوبار الذى كان يغنى فيه عبده الحامولى ويرتاده خليل مطران ، وسليم سركيس الصحفى ، ومقهى الكتبخانة أمام دار الكتب ، وكان يقدم الشيشة لحافظ إبراهيم الشاعر ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وغيرهما ، وكان هناك مقهى الشيشة فى شارع الجمهورية ، ومكانه الآن دكان للتجارة ، وكان يجتمع فيه هواة التدخين ، وهواة المصارعة بالكلاب ، أما مدينة الاسكندرية فتزدحم حتى الآن بعدد من المقاهى المشهورة بتقديم النرجيلة ، مثل مقهى التجارة ، ومقهى جابر بالمنشية ، ومقهى فاروق بحى بحرى ، ومقهى وادى النيل بالرمل .

وتصنع النرجيلات فى منطقة القاهرة القديمة ، وتوجد عدة متاجر متجاورة بشارع بين القصرين تبيع النرجيلات ، وادوات التدخين ، من حجارة وليات ، وغيرهما ، ويبلغ ثمن النرجيلة المصنوع قلبها من النحاس وهو الجزء الذى يصل بين البرطمان الزجاجى والحجر ، حوالى خمسة عشر جنيها ، أما النرجيلة المصنوعة من النحاس الخالص المنقوش والتى تباع فى متاجر التحف بخان الخليلى ، فيبلغ ثمنها عدة مئات من الجنيهات ، واذكر قسما خاص بالنرجيلات يحتل احد فروع سوق الحميدية بدمشق بالقرب من المسجد الأموى .

وفى الثلاثينات كان متوسط سعر النرجيلة من التبغ عشرة مليمات فى مقاهى القاهرة ، وفى الأربعينات كان ثلاثة قروش أى ثلاثين مليما ، وخضع سعر النرجيلة للتطور ككل شىء الآن فى القاهرة يبلغ سعر النرجيلة الحمى عشرة قروش ، والعجمى تصل إلى أربعين قرشا ، أما الكيلو من التبغ الخاص بالنرجيلة فثمنه ثلاثون جنيها ، وكان فى أوائل الخمسينات بثلاثة جنيهات ، فى دمشق تستطيع ان تدفع نصف ليرة سورية مقابل تدخين نرجيلة فاخرة ، كذلك فى بيروت ، فى بغداد ثلاثين فلسا ، وفى استامبول

يبلغ قيمة النرجيلة لحجر واحد ما يوازى نصف جنيه مصرى .

على أية حال ، فالنرجيلة ماضية فى طريق الانقراض ، ولن تمر سنوات طويلة قبل أن توضع فى المتاحف ، واننى لأرثى لهؤلاء الذين سيأتون فى الأزمان المقبلة ، فلن يجدوا صديقا صامتا ، مستجيبا يلجأون إليه إذا ما ازداد الكرب ، واعتم الواقع ، وادلهمت الظروف ، وبدت الأيام رمادية مثقلة بكل باعث للضيق ، والكتمة ، نحن نلجأ إلى النرجيلة ، ولكن هم .. إلى من سيلجأون ؟؟ .

● جمال الغيطانى

■ تمهـيد ■

لم يخطىء بونابرت حين قال : ليس من الشرق الأسطورى أو المتحضر ، من لا يضيع وقته فى مقهى أو يضحى بقليل من عمره فى إعداد المشروب الساحر . وهو يقول اثناء حملته على مصر : كان لدى دائما سبع تنكات فوق النار ، وذلك لكى أستعين على الحديث مع الأتراك(*) الذين يجعلوننى اسهر طوال الليل بحديثهم عن العقيدة : كانت الحبوب الخضراء الثمينة ، السوداء فى الخيال ثم من موكا عبر طريق مكة ، وطريق قوافل الصحراء ، وتبحر إلى الاسكندرية ، فى طريقها إلى البندقية ، حيث تساهم فى إشاعة البهجة فى الأوساط التركية باوروبا التى لم تنس شيئا من دروس تلك السنة المشهورة وهى سنة ١٦٨٣ : فإن المدعو جورج كويشزكى ، الضابط البولونى ، بعد أن وضع نهاية للغزو الأجنبى لفيينا ، استولى ، كغنيمة وحيدة على جميع أكياس البن من الغزاة ، وافتتح له محلا ، فى حين راح الخباز بيتر وندلر ، فى احتفاله بالنصر مع الأتراك ، يصنع فطائر كرواسان . ولكن بدا ان مقاهى الشرق قد بدات قبل ذلك تفقد رونقها ، فقد اصبحت المقهى مكانا ادبيا ، وفقا للعادة ، وكشفت البروكوب[1] أسرارها للغويين واصحاب الموسوعات ،

(١) البروكوب هى اقدم المقاهى الأدبية بباريس ، انشاها الصقلى فرانسوا بروكوب ، والتقى فيها بيرون وسباستيان مرسييه وفريرون مونسيف . وتحولت إلى ناد اثناء الثورة ، برئاسة هيبرت . وكان من بين رواده الفريد دى موسيه وجورج صاند وجامبيتا وانانول فرانس وهوسمان وكوبيه ونيرلين وغيرهم .

ملحوظة : * المقصود هنا امراء المماليك ، وشيوخ الأزهر ، وشيوخ الطوائف والحرف المصريين .

وأصبح السائل نفسه تافها ، وتخفف من سحره العجيب لكى يعقد اتفاقا مذهلا مع لبن الأبقار النورماندية .

ليس هناك أجود من القهوة الشرقية . وقصتها تبين لنا الصلة المثالية التى تربط بينها وبين جميع مدن البحر الأبيض المتوسط . بل انك ما أن تقلب الثقل السميك ذات مرة حتى يمكنه أن يكشف لك ، فوق الصحن الأبيض الصغير مصير تلك الأماكن العزيزة جدا على لوتى وفرومنتان . وإذا راق لأحد أن يقول ، بحق أحيانا ، ان المفكرين ببلادنا يهجرون تلك الأماكن الفخمة والحقيرة ، فلا يمكن إلا أن نتحقق من بقاء عادة إدمان القهوة . وحتى اليوم فان وجوه أهالى البحر الأبيض المتوسط تكتنفها ادخنة النرجيلة ، مع تلك اللمسة الزرقاء التى تكسبهم إياها انوار شاشات التليفزيون ، الراويات الجدد الأثيرية لملحمة الظاهر بيبرس . وناهيك عن تلك المطابخ المتجولة التى تنتقل فى شوارع المدن وفى الأرياف ، والتى تقدم أحيانا موسيقى فريد الأطرش وأم كلثوم وسيد درويش ومحمد عبد الوهاب عبر مكبرات الصوت .. وهذا هو السبب فى أن الأزمة المؤسفة لتزايد السكان والاسكان التى تعرفها بلاد الجنوب تضمن للمقاهى الأدبية أو لمقاهى الحى رواجا مستمرا ، إذ أين يجتمع الرجال فى غير تلك الأماكن ؟

□ □ □

وجيرار جورج الذى تدين له المقاهى بأنه قدم لها ، هذه السنوات الأخيرة ، كمهندسين معماريين جدد وفنيين دلبرا وكورودا ورواينو وزيفولا وبورتو جيزى ومونتيس وجاروست وكثيرين غيرهم[1] يذكر فى كتابه المقاهى الأدبية والثورة التى جعلت من القهوة فى أرض الإسلام « الأبولون الأسود والباخوس الجديد »

---

(١) يضم معرض مقاهى الشرق اعمالا حديثة لسنتياجو وروبرتو بارنى وريكا ردوكاليرو وبيير مارك ذى بيلزى وجيراردو وديكرولا وديكس وسلمى جوربيز واكى كيرورا وفرانسوا لامور وجان لامور ولويك ماديك وفيكتور ميرا وباولو مونتورزى واوريست زيفولا .

« وهكذا فان الجنون الفاجر والباهظ الثمر لخمر الألوهية المسرف قد قضت عليه الصحوة والمنطق الذى ولدته القهوة ، وإن خمول ديونيوس اصبح معيبا امام اليقظة الروحية التى تسببها عربة الإيمان الجديدة ، فضلا عن أن الخمر تحتلّ مكانا كبيرا عند غير المؤمنين ، بتحولها إلى دم المسيح فى سر القربان المقدس . »
ويكفى للاقتناع من ذلك أن نقرأ الأناشيد التى نظمها الشاعر التركى تكريسا للقهوة .

وقد عانت مقاهى الشرق قليلا من قصص بها من الغرابة الكثير ، رواها الرحالة الأوروبيون فى القرون الأخيرة ، فبول موران لم يستطع أن يصف المقهى القديم بالقاهرة فى كتابه « الطريق إلى الهند » دون الإعجاب بأجوائها والافتتان بالصوانى الكبيرة من النحاس المطروق باليد ، والشبيه بالشمس الغاربة فى الصحراء فى امسيات الرياح والرمال .. وأن يكشف فى دهشة شاعرية انه ليس هناك اجمل من كوب ماء ابيض فى الشمس ، بكل بياضه ، بجوار فنجان من القهوة السوداء . وإذا اعتبرنا كل شىء ، فاننى افضل على قوله هذا مقولة بونابرت الأقل رثاء ، فهو رغم ما يعانيه من آلام محرقة فى معدته ، يعرف أن القهوة التى يحتسيها مع المصريين يمكن ان تخدم غرضه السياسى . من تلك الأساطير المخففة عانت مقاهى الشرق ، فضلوا عليها القهوة البلزاكية ، وقد اصبحت فجاة أكثر واقعية . فمن تنكة علاء الدين لا تخرج الصور إلا مترجمة إلى افكار : ثورات فى المدارس ، المفكرون يصممون جغرافيا المؤسسة الباريسية التجارية ، فالمقهى الصغيرة سواء كانت محلا أو مجرد غلاية ، مقامة على ناصية شارع تصبح مؤسسة . والقهوة غدت رمزا مستديما أو مسمى ، ولكن المياه الغازية والمشروبات الكحولية تقدم فيها بمهارة ، مالم تقدم الكريمات المثلجة ومشروبات ديدرو ودالامبير المؤرخين الشهيرين .

وقد رأت مقهى باليه رويال عصرها الذهبى قبل ان تتوارى أمام مقاهى البوليفار الكبير التى احتضنت المأساة : فقد تصدر كورتلين

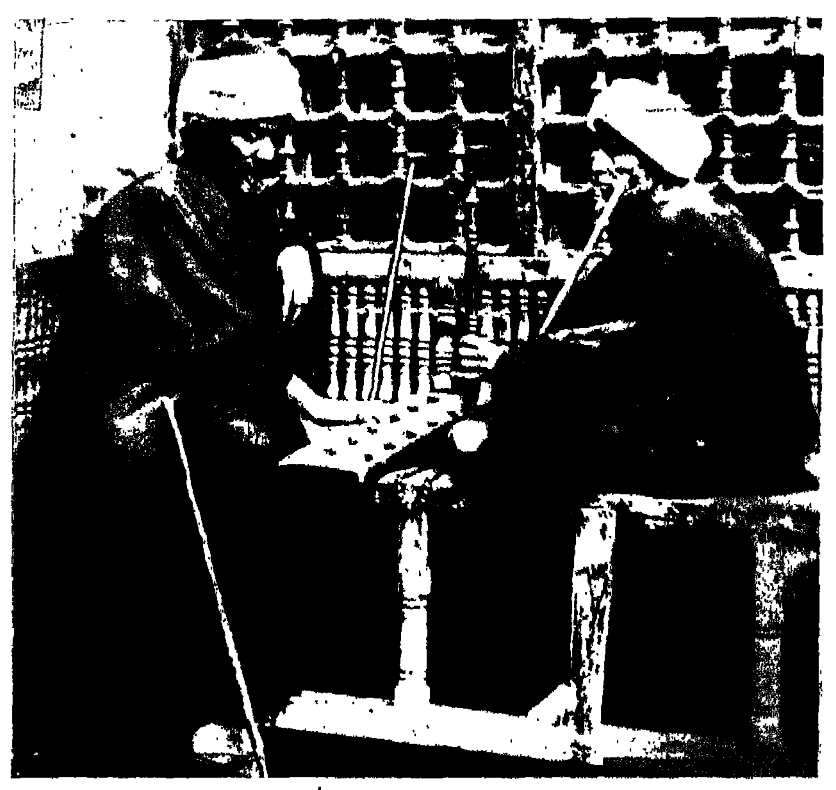
ودوماس واناتول فرانس شرفاتها ، ثم خلفتها مقاهي مونبارناس : الكوبولي وتعوزيري دي ليلا . ولا يزال بعض الفاشلين من الأدباء يختلفون إليها حتى اليوم ، ويلمعون باكمام جاكتاهم المقلوبة أوسمتهم النحاسية التي تخيل لهم أنهم يجلسون مكان فيرليني وفاليري أو مالارويه . وإذا كان ولابد أن نذكر الانهيار أخيرا فإن جرمان دي بريه من مورا إلى جياكوميني حيث كان المفكرون يمضون في الشتاء ـ وذلك أثناء الاحتلال ـ للاستمتاع بدفء الموقد ، ويحيلون المكان في الصيف إلى صالونات وضمائرهم مستريحة . وراجت أماكن أخرى خارج فرنسا في تلك الأوقات : مقهى الكافيبوم ، ومقهى جريكو في روما ومقهى ميشيل أنجلو في فلورنسا ، ومقهى سبيرلي والسنترالي في فيينا .. في حين ان مقاهينا الشرقية الصغيرة لم تمتد إليها الموجات الأدبية ، وأخذت تستمر في تبديد ادخنتها ومشروباتها .

يروق لهذا الكتاب أن يحيي اليوم تلك المقاهي ، وقد انطلقت المعاهد والمراكز الثقافية الفرنسية بهذه المنطقة في اثر هذه الأسطورة الحية ، وجمعت أو طلبت من بعض المصورين الفوتوغرافيين ريبورتاجات ، كما جمعت مستندات ورأت أن تقدم للجمهور نتائج ابحاثهم ، أبيض واسود . ويريد هذا الكتاب أن يبقى أثرا .. أثرا لهذه الرابطة التي تجمع البلاد التي تمثلها مراكزنا الثقافية الفرنسية ، والتي تشترك لأول مرة في نشره ، فان القهوة والمقاهي ترسم حدود ثقافة جماعية خيرا مما تفعل الأنهار وخيرا حتى من البحر الأبيض المتوسط الذي يجمع بين تلك البلاد .

ومن مقاهي الشرق تلك ، لا نزال نامل ، كما يقول القصاص المصري جمال الغيطاني ، أن نسمع في غروب الشمس ، الشاعر ينشد على أنغام ربابته الملاحم الشهيرة لأبي زيد الهلالي ، مالم يتعلق الأمر ببعض أشعار قسطنطين كفافي .

● أوليفييه بوافر دارفور

سيد القهوة



القهـوة

يحيط بظهور القهوة غموض ، وبسبب ذلك الغموض تولدت اساطير ، ازدادت بممر القرون ، وبحكم تكرارها اصبحت حقائق ، لأن قوة الأسطورة هى فى سد فراغ ، وكما نعرف كثيرا فان روح العلمية تخشى الفراغ .

وأقرب إلى التصديق ، لأول وهلة ، القصة التى يذكرها عالم اللاهوت الإيطالي فوستونيرونى ، فى القرن الثامن عشر ، وينسب فيها اكتشاف النبات الثمين إلى أحد الصوفية . فالمفروض أن هذا الأخير راى بعض العنزات ترعى أوراق وحبوب شجرة صغيرة ، وانها لم تلبث أن اصيبت بحالة من السكر ، وذهل الراهب الطيب وهو يرى المنظر الذي يدور أمام عينيه ، وأراد ان يتحقق من الأمر ، فقرر أن يتذوق تلك الحبوب ذات القدرة الفائقة ، فغلى بعضا منها في قليل من الماء ، وبذلك تم اكتشاف القهوة . والواقع ان رواية نيرونى ما هى إلا ترديد لرواية ريتشارد برادلى التى ضمنها كتابه « تقرير تاريخى وجيز عن القهوة » الذى صدر فى لندن سنة ١٧١٤ ، فقد نسب فيه هذا الاكتشاف إلى أحد الرعاة ، وليس إلى أحد الصوفية .

□ □ □

وإذا كان يبدو ان القهوة ظهرت فى اليمن السعيد فى منتصف القرن الخامس عشر ، فليس هناك اى اثر مكتوب بخصوص استعمالها ، والظاهر أن المؤرخين العرب قد عانوا نفس الصعوبة في تفسير مصدرها .

□ □ □

وينتهي الكاتب فى قصته مؤكدا أن القهوة قد نسى أمرها بعد ذلك تماما حتى القرن الخامس عشر .

والأدب العربى ، بقدر ما أعلم ، صامت فى هذه النقطة ، ولم تبدأ الكتب التى تعالج مسألة القهوة فى الانتشار إلا متاخرة جدا . وتلك الكتب تهتم قبل كل شيء بمصدر هذا المشروب الجديد ، واحدها كتبه عبد القادر الجزيرى ويعتبر حجة فى هذا الأمر . ولم تلبث الآراء التى يضمها أن تناولتها غالبية كبيرة من الكتاب الذين جاءوا بعده ، وهو مقتنع بانه يعرف قصة القهوة عن يقين ، ويصرح :

يقال اليمن وحدها لان ظهور القهوة حدث فى أرض ابن سعد الدين فى بلد الاحباش والجبارتة ، وفى أماكن أخرى من أرض مملكة العجم . ولكن وقت استعمالها لأول مرة غير معروف ، وكذلك سبب استعمالها غير معروف هو الآخر .

ولم يخطىء الجزيرى لأن المعروف ان كلمة قهوة كانت شائعة قبل ظهور كلمة البن وتقبل الناس له . وطبقا لأحد واضعى المعاجم العرب فى آخر العصور الوسطى ، فان القهوة هى الخمر ، وقد سمى كذلك لأنه يسكر الرجل ويجعله يفقد الشهية التى يحتاج إليها » . وقد اكد آخرون ان هذه الكلمة مشتقة من كلمة « كافا » وهى اسم منطقة بالحبشة ، من المعتقد انها موطن البن . ويعتقد آخرون أنها اشتقاق من لفظ « قوة » وهى كلمة معناها القوة أو القدرة .



● مقهى عربيـــة بعـــدن

وقد ناقش الجزيرى هذه النقطة الدقيقة من اللغة فى عناية كبيرة ، ويفترض ان القهوة صنعت فى البداية من « الكافتا » أى من اوراق معروفة باسم « قات » ، ولم تصنع إذن من حبوب البن أو من قشورها . واستعمال ذلك المنقوع راح ينتشر من منطقة إلى أخرى حتى وصل إلى ميناء عدن المحمية . وفي عدن ، فى عهد الشيخ الذبهانى لم يكن هناك « كفتا » وقد صرح لتابعيه وللذين ارتبطوا به فى تصرفهم أن حبوب البن تثير الانتباه هى الأخرى .. وهكذا جربوها ، واكتشفوا أنها تؤدى نفس المهمة التى تؤديها تلك المصنوعة من القات ، وبتكلفة اقل وبدون أن تتسبب فى أية اضطرابات . وأبدى رأيه وقال انه لا يوجد اى تناقض بين هاتين الكلمتين ، مادامت الأولى قد حلت محل الثانية التى بطل استعمالها ، وكل ذلك ليس طبعا إلا مجرد تخمينات وضرورة تكوين مقومات منطقية ، حتى لمسمى القهوة يحل فى نفس الوقت غموض هذا المشروب الذى يشهد به اللسان قبل أن يتقبله أحد .

□ □ □

● الذكر :

عندما رحل دوهسون إلى الشرق الأوسط فى القرن الثامن عشر ، زعم ان أول من استخدم القهوة العربية صوفى من موكا عاش حياته كلها فى الصحراء يتناولها ، وانها اذهلت تلاميذه ، وراحوا يمتدحون خواصها فى مدينة موكا كلها .

وقد استند ذلك المؤلف إلى الدراسات التى وضعت قبل زيارته بوقت طويل ، وكلها تشهد بان شيخا صوفيا هو الذى وجد فى تناول القهوة سندا يساعده على قضاء شعائره الدينية .

وعندما زار كارستن نيوبهر اليمن ، فى أوائل القرن الثامن عشر ، علم ان الشاذلى . وهو رجل تقى ، عاش قبل ذلك بأربعمائة عام ، قدم القهوة لبعض المطلعين على أسراره . ويذكر لنا نجم الدين الغازى صورة اخرى فيقول : « انه مر فى تجولاته بشجرة بن ، واقتات من ثمرتها ، كما هى عادة الرجال الأتقياء ، وادهشه ان أحدا لا يقربها رغم نضجها ، وراى انها نشطت ذهنه ، وتسببت فى انتباهه وإثارته (لممارسة الشعائر الدينية) . وبدأ إذن بتناولها كطعام وشراب . ودعا تلاميذه أن يحذوا حذوه ، حتى الوقت الذى راح فيه كل من فى اليمن يتناولها . ويقدم لنا الجزيرى قصة أخرى فيذكر ان فخر الدين الحقى يقول : أكدوا لنا ان النبهانى هو أول من قدم القهوة . ولكن ، ما نمى إلينا من عدد كبير من الناس هو أن أول من قدم القهوة وجعل من تناولها عادة عامة وشائعة فى اليمن هو تلميذ لسيدنا الشيخ .. ناصر الدين بن مايلاك ، أحد اساتذة شيوخ الطريقة الشاذلية . (ويقال) ان (القهوة) استخرجت فى البداية من الكافتا (...) وان تناولها استمر فى الانتشار .

ومهما تكن وجهة النظر المختارة ، فان تلك الأقوال المختلفة تتفق على الأقل فى شىء واحد ، وهو أن الشخص الذى نادى بفوائد القهوة قد يكون شيخا قديما من شيوخ الطريقة الصوفية . على أن هناك افتراضا بان اولئك المتدينين كانوا يتناولون مواد منبهة ،

منها الحشيش الذى كان يتيح لهم البقاء فى حالة تيقظ ، ويمكنهم من الاضطلاع بالشعائر الدينية فى نفس الوقت . والثابت هو أن كثيرين من أتباع تلك الطريقة أصبحوا مؤيدين لها ابتداء من الربع الثالث من القرن الخامس عشر ، وعلى وجه الأخص ، فى اليمن . وقد اتضح كذلك ان القهوة لم تلبث أن أصبحت جزءا متمما لاحتفالاتهم التى يطلقون عليها اسم « الذكر » ، فان الشيخ يوزع القهوة على المشتركين أثناء إنشادهم ، ويصبها لهم طبقا لعادة ثابتة تماما . وابن الغفار يؤكد ذلك فيقول ان أوائل الذين تعودوا عليها كانوا من المتسولين المهتمين باجتماعاتهم الذكرية وبالصلاة ، لوجه الله . طبقا لطريقتهم السابق ذكرها .

ولكى يتحقق الجزيرى من صحة هذه الممارسة ، لجأ إلى رجل من مشاهير رجال القانون ، ووقور بحكم سنه ولا يمكن الشك فى حكمه . وأجابه القاضى الحكيم بقوله : سألت جماعة من قدامى الأهالى ببلدتنا ، وعمى بالذات أكبرهم سنا ، ورجل قانون ويدعى وجيه الدين عبد الرحمن بن إبراهيم العلوى ، ويبلغ من العمر تسعين عاما . وقد قال لى : كنت موجودا فى مدينة عدن عندما أقبل صوفى فقير ، يصنع ويشرب القهوة ، وقد أجاد إعدادها لرجلين من رجال الدين ، وشرب هذان الرجلان تلك القهوة مع أشخاص آخرين ، اقتدوا بهما بعد أن اطمأنوا إليهما بما فيه الكفاية . وتساءل الجزيرى إذا كان ذلك الصوفى الذى قام بتلك الحركة التمهيدية الموجهة التى كان لها معناها الكبير لدى تابعى الصوفية هو النبهانى بالذات أم أنه صوفى آخر . ولكن الثابت لديه انما هو دور ذلك الصوفى فى طقوس هؤلاء المشغوفين بالحب الإلهى ، وهو يعزو إلى القهوة شرعية دينية تؤكدها أبوة رائد كالنبهانى .

واستطاع المؤلف الشهير كاتب صليبى أن يلاحظ عادات هؤلاء الصوفيين ، وقد سجل فى مذكراته ان بعض الشيوخ الذين يعيشون فى جبال اليمن ، مع دراويشهم ، كانوا معتادين على مضغ وأكل حبوب البن ، وكانوا يدعونها « قلب وابون » وهم يعنون شجرة بالذات .

ولما كان الصوفيون لا يعيشون فى صوامع ، ويحيون حياة تشرد فلم يلبثوا أن أشركوا فى حبهم لذلك المشروب كل مكان يمرون به . وفى القرن السادس عشر يقول فخر الدين بن أبى يزيد المكى « وبالنسبة لنا نحن ، كان القشر يأتينا إلى ربى ومكة وبلاد أخرى منذ عشرين سنة او اكثر (...) ولم ينتشر قبل نهاية القرن التاسع من الهجرة .

□ □ □



● فلاحون بضواحى غزة يعدون القهوة

● العلمـاء :

تحتسى القهوة فى الأحياء اليمنية بالقاهرة منذ بداية القرن السادس عشر . والجزيرى ، المعروف بمبالغته الفائقة فى الدقة ، يروى بالتفصيل الطريقة التى يعالج بها الأهالى القهوة : تناول الناس الكثير من القهوة فى حى الجامع ، وكانت تباع علانية فى أماكن كثيرة . ورغم المدة الطويلة التى قدمت فيها القهوة ؛ فلم يخطر لأحد إزعاج شاربيها ، ولم يجد أحد عيبا فى المشروب نفسه أو فى المتعاملين معه ، بحكم اشتراكهم فيه . ولكنها انتقدت بسبب عوامل أخرى خارجة عنها كتمرير الفنجان وغير ذلك . وكل ذلك رغم انتشارها فى مكة أيضا ورغم انها كانت تحتسى فى الحرم المقدس بحيث انه لم يكن هناك ذكر واحد أو احتفال بمولد الرسول إلا وكانت القهوة موجودة .



● مقهى فى شرفة بالقدس

ويشير الجزيرى هنا إلى حادث وقع فى سنة ٩١٧ هجرية ، الموافقة لسنة ١٥١١ ميلادية ، وهو أول تحريم لتناول القهوة ، إذ يقال ان باشا المماليك ، خيربك ، ذهب فى العشرين من يونية إلى الكعبة ، لكى يؤدى الفريضة ، ورأى فى الظل جماعة صغيرة من الرجال مجتمعين حول فانوس اسرعوا بإطفائه عندما سمعوه يقترب . ولكن الوقت كان قد أتاح له مع ذلك ان يرى انهم كانوا يتناولون مشروبا (بطريقة الشاربين الذين يتعاطون مخدرا)

وتولته الحيرة ، وانتهى به الأمر إلى الإحساس بالقلق إزاء هذا التصرف . ولا يلبث أن يعلم أن ذلك المشروب الغامض يعرف باسم القهوة . وان هناك عادة فى تناولها في أماكن مختلفة .. كالحانات ، حيث تقع أمور محظورة . ويستدعى فى صباح اليوم التالى بعض العلماء ، اى بعض الفقهاء في الدين لمناقشة الأمر . والمعروف ان خيربك محتسب ، ومن مهام المحتسب التفتيش على السوق العام والاهتمام بالأمور التجارية ، والعمل كذلك على حفظ النظام والآداب العامة . وفى الاجتماع ، ولم يكن فى حقيقة الأمر غير هيئة محكمة ، جيء بإناء كبير مملوء بالقهوة . وقليل من الحجج يمكن تقديمها ضد المشروب نفسه ، فان كل نبات انما هو من خلق الله ، وكل مأكول على الرحب والسعة مالم يثبت ضرره لصحة الإنسان . ولتحريم تناولها فمن الأوفق اللجوء إلى الأطباء ، وطولب اثنان منهم الإدلاء بشهادتهما ، فصرحا بأن القهوة من طبيعة باردة وجافة وأنه يتضح من ذلك انها تضر صاحب الطبع المعتدل . وحاول بعضهم ان يحتج قائلا ان اطباء آخرين امتدحوا فوائدها الصحية ، (فهى علاج للبلغميين) ولكنهم لم يصغوا إليهم على الإطلاق ، وقرروا منع القهوة . بيد ان القهوة لم تكن هى المستهدفة بقدر استهداف الصوفيين الذين يعيشون بكامل إرادتهم على هامش المجتمع . حيثيات المحاكمة لم تطرق هذا الموضوع . ومهما يكن فقد كانت هناك رغبة في معاقبة تلك الطائفة الصوفية بحملتهم على مادة اساسية وجديدة فى طقوسها .



وهكذا اعلن خيربك فى مكة ان بيع البن وتناول القهوة محظوران ، وان المخالفين سوف يعاقبون . وأحرقت أكياس من البن في شوارع المدينة المقدسة . والذين قد يجرؤون بعد ذلك على بيعه أو الاستمرار في شرب القهوة سيجلدون علنا . على أن هذا القرار لم يعمل به إلا فترة من الوقت ، فسرعان ما تناساه الناس وعاد كل شيء كما كان .

ووقع حادث جديد في مكة بين سنتي ١٥٢٥ و ١٥٢٧ ، فقد أقبل إلى المدينة المقدسة رجل كبير من رجال القانون واقام بها . وعلم بالحياة السيئة التي تدور في المقاهي وأصر على غلقها . وكان ذلك الرجل قد حكم على امرأة في المدينة قبل ذلك بسنة وأصدر قرارا بأن لا تستمر في تجارتها لأنها كانت تبيع القهوة وهي سافرة الوجه . وبذلك الحكم يكون قد أرضى أخلاقياته القاسية . والمقاهي السيئة يجب أن تغلق أبوابها . ويمر عام ويموت رجل القانون الصارم ، وتتحلل المقاهي من الغلق والحرمان .

وصدرت فتوى في القاهرة كذلك حوالي سنة ١٥٢٠ ، ثم دوهمت بعض المقاهي في سنة ١٥٣١ أو ١٥٣٥ ، وطرد روادها وأسيء معاملتهم . وتولى أحد القضاة القضية ، ولكنه لم يلبث أن انضم إلى رأى أنصار القهوة ، ولكي يحظى بتأييد أعضاء المجلس قدم لكل منهم فنجانا من القهوة ، لكي يتأكد إذا كان قد صدر منهم أية أعراض للجنون ، واضطر الجميع طبعا إلى تبني رأيه .

ولكن الأمور لم تبق عند هذا الحد ، ففي أيام رمضان من سنة ١٥٣٩ ، دهم حارس ليلي مقهى من أكثر المقاهي شعبية ، وأمر بتقييد الكثيرين من روادها ووضع الحديد في أقدامهم ليكونوا عبرة لغيرهم .

ومع ذلك فلم تحرم القهوة بصورة جدية ، فالقرآن الكريم لم يذكر شيئا عنها ، وهو لا يحرم إلا الخمر وأنواع أخرى من المشروبات التي تتسبب في السكر . ومن العسير اعتبارالقهوة مشروبا غير مرغوب فيه . وقد حاول البعض مرارا كثيرة أن يضمها إلى المستحضرات التي تتسبب في السكر والضرر ، كالحشيش مثلا . وأبدى كاتب مجهول سخطه لمثل هذا الادعاء وقال : من المستحيل أن يعلن رجل مسلم أن القهوة تحدث في نفس شاربها ، حتى ولو بكميات كبيرة ، نفس التأثير الذي يحدثه تناول الخمر أو الحشيش ، وأنها تضع على العقل غشاوة وتتسبب في تغيرات في متعاطيها إلى حد القول أنه سكران . والذي يؤكد أن شرب

القهوة يجعل شاربها في نفس الحالة ، أو في حالة قريبة من تلك التي يشعر بها من يشرب أو يتعاطى أشياء أخرى فانه يذنب بافتراء « كذبة كبيرة » ، وهو ليس الوحيد الذي يقوم بمثل تلك الحملة ، لأن هناك نقدا صاحبه هو الآخر غير معروف . يُدحض الاتهامات التي نسبت إلى « القهوة » فإن القهوة إذا قورنت بالمشروبات الضارة بالصحة فانها لتكون مقارنة خاطئة لانه ثبت بوضوح تام عكس ذلك حقا ، وذلك بسبب طبيعتها وتاثيرها ، فالمرء يشرب القهوة وهو يبسمل باسم الله ويبقى متنبها في حين ان الأشخاص الذين يبحثون عن المتعة الخطرة لا ينطقون باسم الله ويسكرون .

ويذكر الناس أحيانا ، دون شك ، النشاط الذي يكسب شاربها نشاطا ومرحا وإحساسا بحالة ذهنية صافية . وهناك أذهان كئيبة تتحسر على تناولها وتعتبرها نحسا وضررا ، ومازال أعداء القهوة كثيرون ، يستنكرون شربها ويخشون الإسراف فيه . والقرارات الطبية التي تبين ضررها تتتابع ، ففي القرن السادس عشر ، يقول محمد بن محمود الزيني الحسيني إن شابا كان يشكو من الانقباض والفتور استقر عزمه على دراسة العلوم ، واصبح طبيبا . وبعد أن قام بتجارب عديدة ، اكتشف ان إسرافه في تناول القهوة هو السبب في آلامه . وتكشف الدراسات عن طبعه البارد الجاف ، ومعنى ذلك ان المرء الذي يشعر بالانقباض ، وتهيمن عليه السوداء تزيد القهوة حالته تفاقما . وينصح المؤلف كاتب صليبي الأشخاص الذين يعانون من طبيعة سوداوية بعدم الإسراف في تناول القهوة لانها تعرضهم إلى مزيد من الأرق والاكتئاب . ويشاركه في هذا الرأي الانطاكي ، فهو خبير وحجة في هذه الناحية ، ويقول ان القهوة مضرة لكل امرىء عنده ميول للكآبة والسوداء .

★ ★ ★

ويبدو ان هذه الدراسات قد احدثت تاثيرها على الكتاب الأوروبيين في القرن السابع عشر ، وكان لها ثقلها الخاص على الأبحاث الأكاديمية التي تحيط بظهور القهوة في فينيسيا ومارسيليا

وباريس أو لندن . ففى مجلة هستوريا يقول فرانسيس بيكون فى مقاله « أحياء وأموات » ان القهوة بالنسبة للأتراك تهيج وتبلبل « العقل » ويروى الغربيون آراء مناظريهم فى البحر الأبيض المتوسط بالنص فيقولون انها تفقد الشهية . ويمكن أن تتسبب فى الضعف وشل الرغبة فى النشاط الجنسى ، إلخ .. وقد تتسبب فى أمراض لا تحصى ، من البواسير إلى الصداعات المزمنة ، وحتى الجزام عندما يمزجونها باللبن .



● مدخن نرجيلة ببغداد





● فنان ينقش ابريقا



ولا يوجد غير قلة من الأطباء الذين يجدون لها مزايا ، فهم يعتقدون أن لها تاثيرات مفيدة ضد السعال والبرد وآلام الكلى وغيرها . ويقول سيرهنرى بلونت الذى أبحر إلى الشرق فى أواسط القرن السابع عشر ان الأتراك والعرب يستخدمون القهوة فى أغراض طبية ، وعلى الأخص فى علاج الحصوة والنقرس . وعندما يقع أحد الأتراك فريسة للمرض فانه يسارع بتناول القهوة ، فلم لم تات بنتيجة فانه يكتب وصيته ولا يفكر فى شىء آخر .

● مدفأة فى قهوة بسكوتارى لوحة من رسم ك. روجر

وعندما اجتاز ليونستار راوول آسيا الصغرى ما بين سنة ١٥٧٣ وسنة ١٥٧٨ ، مارا من فارس إلى سوريا ، وهو طبيب من مدينة اوجستا يهتم عن كثب بالشعوب التى أدمنت عادة الكافيين السيئة ، قال : ومن بين ما يتناولونه مشروب جيد يقدرونه نوعا ما ويسمونه « شوب » ، وهو أسود كالحبر ، ومفيد جدا فى معالجة بعض الاضطرابات ، وعلى الأخص اضطرابات المعدة . ومن عادة الناس تناوله فى الصباح ، وخارج البيوت دون أية خشية أو خوف ، ويحتسونه فى فناجين صغيرة عميقة من الصينى وساخن إلى حد لا يطاق . ويجتمعون فى جماعات أحيانا ويجلسون فى دائرة ويحتسونه فى جرعات كبيرة ، ممررين الفنجان من واحد إلى آخر . ولإعداده يضعون فى الماء ثمارا يسمونها « بن » وهى اشبه من الخارج ، بلونها وحجمها حبوب الغار ، ومغطاة بقشرتين رقيقتين . وهذا المشروب شائع جدا بينهم لانه يباع فى حوانيت عديدة ، ويمارسون تجارة رائجة بالحبوب التى يصنع منها ، كما يمكن أن ترى فى كل مكان وانت تتجول فى السوق .

وبعد ذلك بنصف قرن تقريبا ، أثبت توماس هيبرت فى كتابه « رحلة إلى فارس » الذى صدر فى سنة ١٦٢٦ ، ان القهوة يبدو أنها احتلت مكانها تماما فى البلاد الإسلامية ، رغم ان قصته أوحت بان رأيه ذلك لم يكن جماعيًا « ان الفرس لا يحبون شيئا فى الدنيا حبهم « للكوهو » « أو الكوفا » التى يسميها الأتراك « قهوة » . وهذا المشروب يبدو انه وفد من ستيكس[1] لأنه أسود جدا وكثيف ومر (...) ويشرب ساخنا . ويبدو صحيا ويطرد الكآبة ويجفف الدموع ويهدىء الغضب ويولد احاسيس رقيقة .

★ ★ ★

ومنذ الوقت الذى راح انصار الصوفية يشربون القهوة كل يوم اثنين وكل يوم جمعة ، بعد ان يصبوها فى إناء كبير من الفخار الأحمر ، يديرونه إلى اليمين وهم ينشدون ويرتلون ، والمناقشة فى فوائد واضرار « الأبولون الأسود » تدور طويلا ، ولم تتوقف إلا بعد ذلك بكثير . وانتصاره لم يتم إلا بعد ان دخل اكبر البيوتات الأوروبية ، واكثر البيوت تواضعا فى الامبراطورية العثمانية .

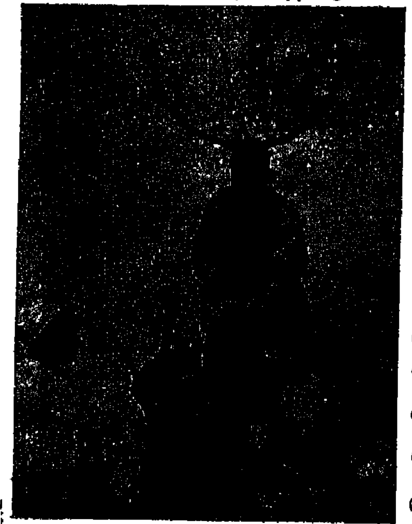
□ □ □

(١) اسم نهر باقليم اريكاريا ببلاد الاغريق ومشهور بمياهه السوداء السامة التى يقال انها تتغلغل داخل الأرض وتجول حول الجحيم وتهيم على شواطئه أرواح الموتى الذين لم يواروا فى التراب .

● انتشار القهـوة :

تاثر جان دى لاروك فى صفحات كتابه « رحلة إلى الجزيرة العربية السعودية » الذى ظهر فى سنة ١٧٩٦ ، باهمية تجارة البن « فهو يشترى فى تبلفاجى لكل تركيا . وتجارها ياتون إلى تلك المدينة لهذا الغرض ، وينقلون كمية كبيرة منه على ظهر الجمال . وكل جمل يحمل جوالين زنة كل منهما ٢٧٠ رطلا ، وذلك حتى ميناء صغير بالبحر الأحمر (...) ، ومنها يشحنونه على سفن صغيرة تنقله إلى أبعد من ذلك بستين فرسخا ، حتى خليج ميناء آخر أكثر أهمية : جدة أو زيدن ، ميناء مكة . ومن ذلك الميناء يعاد شحنه ثانية على مراكب تركية تمضى به حتى السويس ، وهى آخر ميناء بالبحر الأحمر ، ثم يعاد نقله مرة اخرى على الجمال وينقل إلى مصر وإلى قرى الامبراطورية التركية الاخرى ، بواسطة القوافل المختلفة او عبر البحر الأبيض المتوسط .

وهذه الرواية تؤكد إلى أى حد أصبحت تجارة هذه السلعة هامة وان الشك الذى يحيط بتوغلها قد نسى تماما ، فلم تعد القهوة عادة متاصلة فحسب وانما أصبحت مشهورة أيضا ، كما لو أنها هبة من العناية الالهية . والشاعر العربى عبد القادر يمتدحها فى سرور وغبطة فيقول ما معناه : « أيتها القهوة ، انك تنشرين خيراتك وانك لشراب احباب الله ، تمنحين الصحة للذين يكدون لمعرفة الحكمة » .



● قهوجى متجول ـ مصر

والرجل الصالح الذى يشرب القهوة هو وحده الذى يعرف الحقيقة . فالقهوة محبوبتنا . وأينما تقدم يستمتع المرء بصحبة خيرة الرجال . وليت الله لا يتيح لهؤلاء الافترائيين المتعنتين شربها على الإطلاق »» . وعلى غراره يتخذ الكاتب التركى بليغى لهجة شاعرية لكى يمتدح خيراتها « ونحن نجتمع فى دمشق وحلب ، وفى العاصمة ، القاهرة ، فى دائرة ، فى مرح كبير .. حبوب البن .. العطر الشذى ! .. قبل أن ندخل السراى ، على شاطىء البوسفور ، كانت قد سحرت الأطباء ولفقها .. وكان لها أنصارها وشهداؤها ، ولكنها ، ويا لسعادتنا ، انتصرت .

ومضى فليكس فابرى ، أحد الرحالة الإيطاليين ، إلى القاهرة فى آخر القرن الخامس عشر ، ولاحظ وجود باعة متجولين يحملون مواقد فوق رأسهم ، ويعدون ويقدمون القهوة للمارة . ومن المحتمل جدا ان القهوة قدمت فى البداية ، فى الأسواق الكبيرة ، فان مطبخا صغيرا متنقلا يكفى لإعدادها ، وكما لا يزال ذلك يدور فى ايامنا فانهم يقدمونها لزبائنهم على صينية ؛ وهؤلاء الزبائن لا يغادرون محلاتهم أو أماكن معاملاتهم التجارية .

● بائع قهوة وتنباك متجول بالقسطنطينية

ومع مرور الوقت اقيم المطبخ فى محل صغير ، فى مكان منعزل ، بحيث لا يتحرك ، يحتفظ فيه بمكان للمستهلكين الذين يجلسون فوق مسطبة أمام المحل ، أو عندما يكون المحل متسعا بما فيه الكفاية ، ففوق دكة توضع فى الداخل . وفى خلال القرن السادس عشر ، أقيمت أنواع كثيرة من الأماكن العامة ، وأوائل هذه المحلات تحتفظ

بالمظهر البدائى لمكان مخصص بالذات لإعداد المشروب لحى أو لمركز أعمال تجارية أو غيرها . والأخرى تحولت إلى أماكن لها طابع شاعرى . وجان دى تيفينو يذكر فى كتابه « تابع رحلة إلى الشرق » ان جميع مقاهي دمشق رائعة : كثير من النافورات ، بجوار الشاطىء ، مناطق ظليلة ، وورود وازهار . وهى اماكن منعشة وممتعة . وكتب المغامر بدرونكسيرا البرتغالى الذى اقام فى بغداد فى أوائل القرن السادس عشر ان القهوة تباع فى أماكن عامة شيدت لهذا الغرض . وذلك المحل يقع على مقربة من النهر ، وبه نوافذ كثيرة ، ورواقان يجعلان منه مكانا ممتعا جدا . ويتكلم جان شاردان عن نوع تلك المحلات بالذات فى كتابه « رحلة إلى فارس » بما أننى لم اتكلم عن البيوت التى يمضى إليها الناس لشرب القهوة فى فارس فسوف أصفها الآن . انها قاعات كبيرة رحبة ومرتفعة ، مختلفة الأشكال ، وهى فى العادة أحسن الأماكن بالمدينة لأنها موعد لقاءات ، وأماكن لهو للأهالى . هناك الكثير منها ، ترى فيها أحواضا مائية فى وسطها ، وخصوصا فى المدن الكبيرة . وتلك القاعات تحيط بها منصات أو دهاليز مرتفعة بنحو ثلاثة أقدام وعميقة بنحو ثلاثة أو أربعة اقدام تقريبا ، حسب سعة المكان أو هيكله البنائى ، وذلك للجلوس فوقها على الطريقة الشرقية ، وتفتح للمرتادين بمجرد طلوع النهار ، وتزدحم بكثير منهم فى نحو المساء ، حيث يحتسون القهوة المعدة بكل إتقان ، وبأسرع ما يكون ، وباحترام كبير .



والغالبية من مقاهى البحر الابيض المتوسط لا تملك طبعا هذه الأبهة والعظمة إلا فيما ندر ، فهي ماتزال محلات متواضعة ، مجهزة بطريقة بسيطة جدا ، كالمقهى التى وصفها الكسندر هيب فى كتابه « دقائق من الشر » فهو يقول : « لا ذهب ولا قطيفة حمراء ، ولكن فى كل خطوة تقريبا محل منخفض ، ابيض الجدران ، وحصيرة مفروشة فوق الأرض ، وموقد ، واريكة مستديرة مبقعة ومنبعجة لفرط الجلوس عليها القرفصاء . وهذا كل شيء . واحيانا قطعة مربعة من القماش الأصفر يبدا احد طرفيها من المحل وينتهى طرفها الآخر فى شجرة أو فى احد البيوت المواجهة بالزقاق ، بحيث تبدو كالخيمة ، وتحتها مقاعد فوق البلاط الأسود المشقق كالصخور الواقعة على شاطيء البحر » . ونفس هذا الوصف يؤكده اندريه رايمون عندما يكتب عن القاهرة « اغلب المقاهى كانت محلات متواضعة جدا ، لا يزيد اثاثها عن بضع حصائر او سجادات مفروشة فوق دكك خشبية ، وبنك ، وفناجين من الصينى بالطبع ، وكل الأدوات اللازمة لإعداد القهوة .



ولمقاهى الامبراطورية العثمانية ، بدءا من شواطىء البوسفور حتى مدينة قرطاجة القديمة سمات عديدة مشتركة ، فعندما نقرأ مقالا لمقال تاميزييه الذى يتكلم فيه عن مقاهي جدة ، فان المشاهد التى يصفها يمكن أن توصف بها آلاف وآلاف المقاهي مع بعض الفوارق تقريبا « فأنت ترى بطول البازار مقاهى عديدة يجتمع فيها المواطنون والأجانب وهذه الأماكن العامة مقامة تحت أسقف طويلة مبنية على هيئة العشش وفى آخرها ، فى كانون كبير ، تشتعل نار مستمرة يغذيها فحم الخشب وتستخدم فى إعداد القهوة وإشعال الغليون أو النرجيلة ، والشيش بلياتها مصفوفة بترتيب بجوار الموقد ، وأرائك من اغصان الأشجار مجهزة بطريقة خشنة ومكسوة بقماش سميك ، فى الداخل اثناء النهار ، ولكنها تنقل إلى الخارج فى المساء . وهناك يجلس العاطلون ويقدمون فيها القهوة من غير سكر . ولكنها معطرة بالقرفة والقرنفل والجنزبيل » .

★ ★ ★

ومع الوقت ووطأة التقاليد ، تحررت المقهى « الشرقية » من صورتها الأولى ، ورسمت بسمة الثقافة الإسلامية بمختلف أنواعها . وهذا المستند للقرن التاسع عشر تقريبا يقع خارج الزمن ، وهذه الصورة التى يعيدها إلينا يمكن ان يتأملها شاردان خيرا من لوتى ، إذا غضضنا النظر عن نقاط تافهة لا تغير شيئا فى مجمل الأمر .





● مقهى عربية ـ القاهرة



● مدخنون أمام باب مقهى سالونيك

● مقهى بدوية بحلب



● ثرثرة حول فنجان قهوة :

تقبل الشرق القهوة بصفة عامة في فجر القرن السابع عشر ، وليس هناك اية طبقة لا تتناولها ، ولا اية مدينة لا تعرفها .

والقرن السابع عشر هو ايضا العصر الذى بدات فيه جذورها تتاصل فى مدن أوروبا ، رغم المقاومات الشرسة لأكاديمات الطب التى أجمعت فى اعتراضاتها على ذلك المنتج الأجنبى الذى لا ينتمى إلى دستور الادوية (الفارماكوبيا) ، وكان لابد من عشرات السنين لكى يتحول عداء الصيادلة والأطباء إلى عطف أكثر ، ومن عظمة السفير ، الأغا مصطفى راكا ، المبعوث فوق العادة للسلطان محمد الرابع قبل لويس الرابع عشر لكى يجد ما يدعونه « موكا » قبولا فى البلاط ،

ونتيجة لذلك في فرنسا كلها ، وكما هي العادة دائما ، في كل الدول وكل الإمارات وكل دوقيات الغرب .

أحاطت طقوس كثيرة بعد ذلك بلذة الكافيين ، في أعلى دوائر السلطة ، وبكل وضوح في قصر توبكابي ، حيث يتربع على العرش ذلك الذي يتحكم في الباب العالي ، وتكتب ليلي حنون في مذكراتها الطريقة التي تقدم بها القهوة للسلطان « انها تاتي جاهزة تماما في تنكة من الذهب ، مغطاة ، وتوضع فوق رماد ساخن موجود في حوض صغير من الذهب ، معلق في أسفله بثلاث سلاسل تجتمع في أعلاه ، وتمسكه إحدى الخدم ، وتاتي خادمتان اخريان بصينية من الذهب عليها فناجين صغيرة للقهوة من الخزف السكسوني الثمين أو من الصيني ، وصحون صغيرة من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة . وتمسك هاتان الفتاتان في نفس الوقت ، مع الصينية ، بمفرش من الحرير أو القطيفة ، مطرز بالذهب واللؤلؤ والأحجار الثمينة ، في وسطه زخرفة من الماس ، وبحوافه شرابات من الذهب ، وإحدى أطرافه مثنى برقة متناهية . وتمسك كل من الفتاتين أحد طرفيه في كف يدها ، وهي تمسك في نفس الوقت بالصينية ، وقد أحاط المفرش بحافتها التي تميل من هذه الناحية إلى اسفل . وتاخذ السيدة الأولى للقهوة صحنا من فوق الصينية ، وتضع فوقه في عناية فائقة فنجانا ، ثم بقطعة صغيرة من القماش المبطن ، موجودة هي الأخرى فوق الصينية ، تمسك بيد التنكة وتصب القهوة . وتمسك عندئذ في رقة بالغة طرف الصحن من ناحيته السفلى ، بحيث يستقر على طرف سبابتها ويرتكز على طرف الإبهام ، وتقدمه إلى السلطان في حركة كلها رقة وفن .

★ ★ ★

ورغم ذلك البذخ وتلك الرقة ، ورغم هذا العرض من العظمة والأبهة ، وتلك الرسميات الخطيرة ، فان الأماكن العامة التي تباع فيها القهوة لا تحظى بالضرورة بسمعة طيبة . ويشير رالفس . هاتوكس بأن تشابها مع الحانات التي سبقتها ، والمفردة لغير

المؤمنين يجعلها غامضة ، فتلك الحانات تتمتع بسمعة سيئة ، لأنه لا يمكن إلا أن تكون فاسقة بسبب تجارة الخمر المحرمة على المسلمين، ولأنها تعتبر كذلك أوكارا للبغاء والشذوذ الجنسي . على أن هذا التفسير غير كاف فان الشائعات تدور بأن المقاهي هي الأخرى أماكن للفسق ، ففي بغداد ، في بداية القرن السادس عشر يقدم القهوة للزبائن غلمان على قدر كبير من الجمال ويرتدون ثيابا غالية . وقد صدم جورج سانديس في شعوره من ممارسة الشذوذ الجنسي بين الرجال في الأماكن السيئة في استانبول ، حيث يحرص أصحاب المقاهي على استخدام صبية يتمتعون بالحسن والوسامة لكي تكون طعما لاجتذاب الزبائن . ومع ذلك ، فلا تبدو هذه الأخلاقيات المنحلة قاعدة عامة ، فان القاضي الاقطاعي البندقي جيانفرا نشيسكو موروزيني لم يبد في مذكراته التي كتبها في سنة ١٥٨٩ تقديرا كبيرا نحو المقاهي التي زارها . بل والأكثر من ذلك ، نحو الرجال الذين يرتادونها « كل أولئك الناس من طبقة منخفضة ، أخلاقهم غير حميدة ، وعلى قليل من المهارة ، بحيث أنهم يقضون اكثر أوقات فراغهم غارقين في البطالة ، والجلوس باستمرار ، واعتادوا الترفيه عن أنفسهم بأن يشربوا علانية ، في المحلات والشوارع مشروبا أسود يغلي إلى الدرجة التي يطيقونها من حبة يسمونها « بن » .. ويقول دوفور في مذكراته : « أبحاث جديدة » الذي صدر في القرن الثامن عشر انه لاحظ انه لا يمكن لشيء جليل وسام أن يقع في مثل تلك الأماكن السيئة التي يرتادها الناس . وينتاب دوهسون نفس الإحساس ، بل انه يقول ان المقاهي كانت قبل قرنين من ذلك ملتقى البكوات والضباط النبلاء والقضاة ورجال آخرين من رجال القانون » وكاتب صليبي ليس اكثر تسامحا ، وينظر إلى زبائن المقاهي كطبقة بعيدة عن الأدب والرقة .ويزيد فيقول ان الأشخاص الذين يرتادونها « من الأمير إلى الفقير » يتسلون بتعذيب كل منهم للآخر .

وهو واثق ان المقاهي ما هي إلا بؤر تختلف إليها أنواع كثيرة من الناس لا يتزاورون عادة . ويخضعون لطبقة لا عيب فيها

ويتجالسون . ويقول تيفينو « إن أناسا من كل الأنواع يختلفون إلى تلك الأماكن دون تفرقة للدين أو للوضع الاجتماعي » وليس هناك من لا يمضي إليها للتسلية والترفيه ، وكثير من الناس يجتمعون بها لا لشيء إلا للثرثرة » وما يسرى على استانبول يسرى على بغداد ، كما يخبرنا بدروتكسيرا بذلك . « هناك يمضي إليها كل رجل يريد أن يشرب قهوة ، سواء كان عظيما أو متواضعا .

ويأتينا الاسحاقي ، المؤلف المصرى بقصة تنويرية ، فيقول ان الناس لا ينظرون إلى المقاهي نظرة سيئة بطريقة قياسية ، فهي تعيد إلى الأذهان صورة أحمد باشا ، حاكم مصر فى آخر القرن السادس عشر ، الذى استطاع أن يعلى نفوذه بين رجال الدين والشعب بأن أنشأ بين ما أنشأ مقاهي في بولاق وفي حي الرشيد . ولكن مثل ذلك العمل الخيرى يبقى استثناء عجيبا .

والنشاط الذى يدور فى المقاهي لا يدور لرفع شأنها ، فاللعب منتشر فيها : الشطرنج والطاولة ، والمنقلة ، وهذه الأخيرة لعبة قديمة تعرف أيضا باسم الـ ١٤ . وكل تلك الألعاب تحظى برواج كبير ، فى حين ان لعبة الورق والزهر غير معروفتين .

ويحدث ، لكى تنتظم الأمور ، أن تكون مأوى لمدمنى المخدرات ، ورايمون يتكلم عن مشروبات مكونة من العسل والحشيش ، فى بعض اماكن القاهرة ، ومتعاطو الأفيون تبنوها ، ويروق لهم ان يتابعوا فيها خيط أحلامهم .

ورواد المقهى يقنعون لحسن الحظ بمعبودتهم السوداء ، وبالتنباك الذى يدخنونه بواسطة غليون طويل أو نرجيلة كبيرة ، ومتعتهم العادية ، أكثر من غيرها ، هى الحديث ، فالثرثرة هى الرذيلة الوحيدة التى يشجعونها ، على ان ذلك لا يكسبهم سمعة طيبة ، فان الجزيرى يشكو من أن الممارسة الرسمية للصوفيين تستبدل بدعابات غير مستحبة ، وبمشاركة فى إثارة المشاعر بالحكايات المسلية . وتمر السنون ، ويزدرى دوفور اولئك الرجال الذين يتجمعون ويشفون غليلهم بالذات باحاديث غامضة ، عن لا شيء بالذات ، أو بحكايات ماجنة مضحكة . وقسيس عصر الملكة

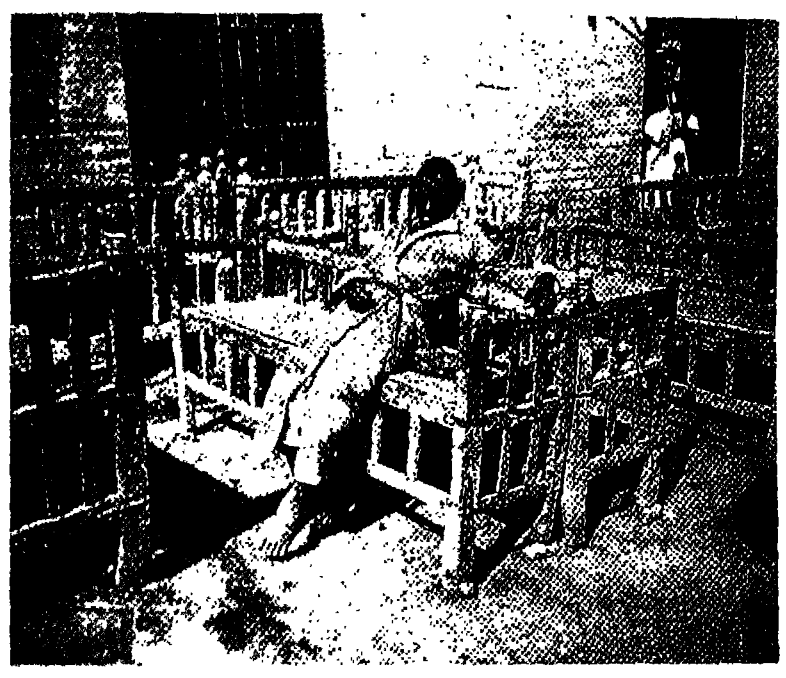
البزابيث حزين لانه لا يسمع غير أحاديث فراغ وخمور فى مقاهى حلب . أما دوهسون فهو مشمئز من هؤلاء الشبان العاطلين الذين يقضون فى المقاهى ساعات يدخنون ويلعبون الضامة أو الشطرنج وهم يناقشون مشاكل اليوم . ثم هناك ، أخيرا ، الذين يكشفون سلوك أصحاب العمل الذين يفيضون حقا فى الأكاذيب والافتراءات والقذف ويثيرون الشكوك حول سمعة النساء العفيفات ، وما يرونه أحيانا انما من أشد الافتراءات هولا أحيانا ، وليس له ذرة واحدة من الحقيقة .

والدين ليس غائبا ، هو الآخر ، عن المقاهى . ولاحظ نيوبهور أن فقهاء وشيوخا فقراء يرفهون عن الزبائن بالدعاء لهم ، وبالقصص التى يتخللها الوعظ والإرشاد تقريبا . وقد تصادف أن التقى فى حلب ، فى يوم جميل ، برجل ثرى كان يخطب فى المجتمعين لرفع معنوياتهم الروحية .. والواقع ان الناس ينظرون إلى أولئك المتدينين الذين اهتدوا حديثا ، وإلى الخطباء الأتقياء نظرتهم إلى مثيرين للفتن ، يجب الحذر منهم كل الحذر . حذرهم من المتآمرين والمحرضين الذين يجتمعون فى المقاهى ويزعجون السلطات . وينسب دوهسون إغلاق المقاهى الحازم فى استانبول إلى أسباب سياسية ، فقد اقتنع انها أصبحت فى عهد مراد الرابع أماكن لقاء لأشخاص وجنود متمردين . وهذا الوصف لم يبعد عن الحقيقة أبدا مع مرور الأيام ، فان حكومة محمد على ، فى قلب القرن التاسع عشر كانت شديدة القلق من أحاديث التمرد والعصيان فى مقاهى القاهرة ، بحيث جندت جواسيس لكى تصغى للأحاديث التى تدور فيها .

وكما فى باريس وروما ولندن والبندقية ، فان مقاهى الشرق تمثل مراكز حرية التعبير فيها هى القاعدة .. وحيث يمكن للحرية أن تكون رخصة دنيئة أو مطمحا للمطلق والحق .



● فلاحان يلعبان الطاولة



● مقهى عربية فى بغداد

قهـوجى

والمقاهى مراكز لهو للأهالى أيضا . ويروى تيفينو أنه على العموم « هناك كثيرون من عازفى الكمان ، وعازفى الناى ، ومن الموسيقيين الآخرين ، يستأجرهم صاحب المقهى للعزف والغناء اثناء فترة كبيرة من النهار ، وذلك على أمل اجتذاب الزبائن . والواقع ان مهنة الموسيقى فى المقاهى شائعة جدا عالميا ، فى كل بلاد الإسلام ، فشاتوبريان فى كتابه « رحلة باريس إلى أورشليم » لا يتمهل فى مقاهى القسطنطينية ، ولكنه يحرص مع ذلك على تدوين ما لفت نظره . « النغمات الحزينة الماندولين تخرج أحيانا من داخل مقهى . وترى غلمانا مقززين يقومون برقصات مخجلة أمام أنواع من القرود ، جالسين فى دائرة ، على موائد صغيرة ، لأنهم يرقصون أحيانا فى كثير من هذه المقاهى . وهذه الحفلات الموسيقية الشعبية الراقصة المتكلفة تقريبا لا تساهم فى منح المقاهى شهادة طيبة بحسن الأخلاق ، فان فن الموسيقيين والمطربين والراقصين مرتبط على العكس بالفسق والفجور » .

والوصف العجيب الذى وصف به تيوفيل جوتييه حانة مشبوهة للبحارة فى استانبول يؤكد تلك الآراء القليلة المجاملة ، وذلك رغم غرابة الوصف « لاحظت على الأخص غلاما قويا ، أنيقا بعض الشيء فى ثيابه الرثة عن غيره من الغلمان ، ذراعاه عاريتان حتى كتفيه ، يبدو كما لو كان راقصا فى باليه فى سترته الطويلة الزرقاء ، وطربوشه الأحمر ، يمسك فى يده حقا من الريحان ، وفى الناحية اليسرى راقصة صغيرة بجونلة قصيرة ، وسعر من اللؤلؤ قد توقفت فى منتصف رقصة لكى تقبل وردة من مغازل »

★ ★ ★

وليس هناك ما يثير افتتان الرجال الطيبين غير الموسيقى عندما يريدون نسيان هموم الواقع . واكبر تسلية لهم هي الاستماع إلى القصص التي يرويها الرواة ، سواء بالتجويد او بالإنشاد ، ويصغون إليها في اهتمام كبير . وفي الوقت الذي راح شاردان يمشي فيه في الشوارع غير الممهدة ببيزنطة القديمة ، حيث ترتفع المآذن ، كما لو كانت حرابا ، نحو السماء المكفهرة ، التقى بالطغمة التي تعيش في المقاهي التي عرفوه بها ، وشهد عروضا اثارت حيرته ، بعيدة كل البعد عن كل ما شاهده في فرنسا .. هناك قصص شعرية أو نثرية يرويها شيوخ أو دراويش او شعراء من كل نوع بالتناوب . وخطب الشيوخ أو الدراويش دروس اخلاقهم كمواعظنا ، ولكن ليس من العيب ان لا تستمع إليها (...) يقف شيخ في وسط قهوة « كوهنيه » ويبدا بإلقاء موعظته في صوت مرتفع ، وفجاة ، يدخل درويش ويحاضر الموجودين في غرور الدنيا وخيراتها وامجادها . ويحدث ان يتكلم في المقهى رجلان في وقت واحد . احدهما في اول المقهى والآخر في آخرها . واحيانا يكون احدهما واعظا والثاني راويا . واخيرا ، تجد فيها اكبر حرية في العالم . والرجل العاقل لا يجرؤ أن يعلق بشيء لأي منهما ، فكل منهما يلقي بدلوه ، وليسمع من يشاء . وتنتهي الخطب عادة بعبارة « والآن وقد فرغت من موعظتي فامضوا باسم الله إلى اعمالكم .. وعادة يطلب الذين يلقون مثل تلك الخطب شيئا من الحاضرين ، ولكنهم يطلبون ذلك بكل تواضع وبدون إلحاح او إزعاج ، لانهم إذا قاموا بعكس ذلك فإن صاحب المقهى لن يسمح لهم بدخولها بعد ذلك . ولهذا يعطيهم من يشاء إن يعطي .

ولكن الوعاظ والخطباء اختفوا من هذه الأماكن بالتدريج ، وعلى العكس . يحتفظ الرواد فيها بمكان اكثر امتيازا . ويتوافد الناس إليها خصوصا في ايام رمضان لسماع قصصهم وروایاتهم . ويجلس الرواة على مصطبة إذا كانت هناك واحدة ، ويجلس المستمعون إليهم على الدكة او على مصاطب المحلات الاخرى المجاورة .

وهؤلاء الرواة إما طلبة يأتون أملا فى ربح بضعة قروش ، وإما رجال دين فقراء . والبعض أساتذة حقيقيون . ويؤكد أوليا جلبى أنهم كونوا اتحادا لهم وانهم يشتركون فى المواكب النقابية .



● مقهى نشاط موسيقى ، بالقدس

ويجتاز الشاب جان بوتوكى اليونان وتركيا ومصر ، وهو فى القسطنطينية فى سنة ١٧٨٤ ويرسل خطابا إلى امه يقول لها فيه : لم يعد أمامى لكى أعرفك بملاهى الشعب التركى إلا أن أحدثك عن المقاهى . اغلبها مبنى على شكل أكشاك ، يدخلها الهواء من كل النواحى ، وجوها بارد بصورة مدهشة . وهى ملتقى العاطلين من كل نوع (...) واحد الرواة المحترفين يروى أحدث المغامرات وهو يلحنها بكل فنون الإلقاء الشرقى المنغم .

وبعد ذلك ببضع عشرات السنين ينقل لنا جيرار دى نرفال نفس الإحساس وهو امام أولئك الرواة الذين يمتعون الحاضرين المتلهفين على سماع أساطيرهم وابطالهم . (لا يمكن إلا تقديم فكرة ضعيفة عن مسرات القسطنطينية اثناء سهرات رمضان وسحر لياليه إذا مررنا مر الكرام ولم نتكلم عن القصص العجيبة التى يرويها باصوات منغمة او ينشدها رواة محترفون يعملون فى مقاهى استانبول (...) ويحسن أن نقول ان المقهى التى نتواجد فيها تقع فى الأحياء العمالية باستانبول (...) بحيث بدا لنا ، نحن رجال المجتمع ، ان الحاضرين من العامة بعض الشىء . ومع ذلك فقد لمحنا بعض الملابس الأنيقة ، هنا وهناك ، فوق المقاعد والدكك . وبدا ان الراوى الذى يجب أن نستمع إليه رجل مشهور ، فعلاوة على زبائن المقهى كان هناك جمع غفير من المستمعين العاديين متجمعين فى الخارج . وطولبنا بالصمت . واقبل شاب شاحب الوجه ، رقيق الملامح ، متالق العينين ، شعره طويل ، يتطاير كشعر الدمية من تحت طاقية لها شكل يختلف عن الطربوش ، وجلس فوق مقعد عال ، فى منتصف ساحة من أربعة إلى خمسة أقدام ، وجاءوا إليه بقهوة . واصغى الجميع إليه فى اهتمام كبير ، لأن كل جزء من القصة ، طبقا للعادة ، يجب أن يدوم نصف ساعة . وهؤلاء الرواة المحترفون ليسوا شعراء ، ولكنهم يروون قصصهم وهم يعزفون على الربابة مختلف الالحان والأنغام . وقصصهم تدور دائما حول الملاحم القديمة ، وهكذا نستمع إلى إضافات او تغييرات

كثيرة فى مغامرات عنترة وابى زيد والمجنون . وذلك على غرار ملحمة « مخطوطة ساراجوسا » التى تروى إحدى القصص الساحرة طالما فتنت سامعيها .

وافتتن بييرلوتى فى نهاية القرن ، بتلك المقاهى ، ماوى الكسالى والخاملين . حيث يحلمون ويستسلمون لأحلامهم الشاردة فى مقهى تركى صاحبه يدعى سليمان القهوجى ، « كان الناس جلوسا حول النار ، وعندما وصلت ، أنا وصمويل واحمد ، سلمت على كل الحاضرين باليد ، وجلست لكى استمع لراوى سهرات الشتاء (القصص الطويلة التى تستمر كل منها ثمانية ايام ، والتى ياتى فيها ذكر الجن والجنيات) وتمر الساعات دون تعب ، ودون ندم ، واجد نفسى مرتاحا بينهم ، ولا أشعر بالاغتراب ابدا » .

وقصص الرواة الطويلة التى لا تنتهى تستبدل من وقت لآخر بعروض للعرائس المتحركة . وفى القاهرة يحضر نيوبهور احد تلك العروض ويحاول أن يكشف تفاصيلها : يقدم العرض فوق منصة ضيقة جدا فوقها صندوق يمكن للمرء أن ينقله بكل سهولة ، يجلس داخله محرك العرائس ، ويمرر شخوصه من خلال ادراج صندوقه الثلاثة ، ويجعل كل منهم يقوم بالحركات الشرورية وذلك بتحريك خيوطه (...) وفى فمه أداة تكسب صوته رنة حادة تتفق مع حجم شخوصه ، وكل ذلك يستحق الاهتمام لو أن العروض التى يحلو للمشاهدين ان يطلبوها لم تكن رديئة جدا . تبدا العرائس بتحية الموجودين ، ثم تتعارك بالتدريج ، وينتهى بها الأمر إلى أن تتضارب ، ولكن لا يقتصر الأمر على عروض العرائس المتحركة ، فهم يستخدمون الفانوس السحرى أيضا ، ويؤسفه أن يكون هدفه الدائم هو : السخرية من عادات الأوروبيين .

□ □ □



● السوق الكبير تحية من القسطنطينية

● رجلان يدخنان النرجيلة فى استانبول - تصوير بيير لوتى





● اشخاص ومناظر مصرية ـ مقهى عربية

● بائع مصرى يبيع فى إحدى المقاهى مخطوطا
يونانيا مهما لفرير بالذات

متحف فرير بواشنطن



فن شرقى

وهكذا ، رغم ان القهوة تنتمى بعد ذلك إلى قوانين الضيافة فى كثير من الأمم التى تخضع لتعاليم القرآن ، فان المقاهى لم تكتسب ابدا حقها فى النبالة ، فعندما نقرا وصف القاهرة للرحالة التركى تيبتز الذى اقام فى مصر فى آخر القرن السابع عشر ندرك ان اشد الازدراء يملى عباراته ، فهو يتعجب لكثرة المحلات ويكتشف « تركيز المقاهى فى كل خطوة وفى أجمل الأماكن للقاء . والمولعون بها يبكرون بالنهوض ، والرجال الأتقياء يمضون إلى المقهى لاحتساء فنجان القهوة ، مضيفين إلى حياتهم حياة » . « انهم يشعرون بطريقة ما ان تاثيرها الخفيف يكسبهم قوة لأداء واجباتهم الدينية وشعائرهم . وتحمسهم فى العبادة بسبب المنبه الأسود سرعان ما يتحول إلى رفض لحياتهم الاجتماعية المحزنة . » ولكن إذا نظرنا إلى الشعب الجاهل الذى يجتمع فيها فاننا نتساءل إذا كان يستحق هذا الحماس .. صفوة القول ان مقاهى مصر هى فى اغلب الأحيان اكثر الأماكن ازدحاما بالأشخاص . وعدد كبير من تلك المقاهى يحتلها قدامى الجنود والضباط والمسنين . عندما يقصدونها صباحا تفرش الحصر والسجاجيد ، ويبقون حتى المساء . وبعض الزبائن من مدخنى المخدرات من طبقة العبيد (...) ان هم إلا نفاية من المتطفلين (...) قوام عملهم تصدر المقهى واحتساء القهوة على الحساب ، والتحدث عن التقشف عندما يتعرض الحديث إليه .

★ ★ ★

ومع ذلك فان من الخطر ان تختتم ، بدءا من العلاقات التى تبدو احيانا أن لها صلة بالتنوير المبالغ فيه ، ونقول ان ارتياد المقهى يعتبر كأنه عمل مذموم ، وان كل الذين يقضون فيها ساعات طويلة هادئة هم بالضرورة عاطلون ومتطفلون ، وان الطبقات السفلى من المجتمع هى الوحيدة التى تختلف إليها . ففى سنة ١٨٧٠ ، زار الفونس دوديه الجزائر ، وفى كتابه « أقاصيص يوم الاثنين » يعبر عن معنى تلك الأماكن التى ترمز إلى فن من فنون الحياة وإلى عقلية حضارة من الحضارات « فالمقهى القريبة انما هى صالون استقبال لأصحاب القصور العربية : بيت داخل البيت ، مخصص للضيوف العابرة ، يجد فيه أولئك المسلمون الكرماء جدا والمهذبون جدا الوسيلة التى تتيح لهم مزاولة أفضالهم الكريمة ، محتفظين فى نفس الوقت بالصلة الأسرية التى يتطلبها القانون . والمقهى المغربية لصاحبها الاغا سى سليمان كانت مفتوحة ، يخيم عليها الصمت كاسطبلاته ، جدرانها عالية ومطلية بالجير ، ومجموعة الأسلحة التذكارية ، وريش النعام ، والكنبة العريضة المنخفضة الممتدة بطول القاعة ، كل ذلك يرشح تحت سيول المطر التى يدفعها الريح من الباب . ومع ذلك فقد كان هناك حشد من الناس فى المقهى ، وعاد القهوجى واشعل موقده ووضع فوقه تنكتين صغيرتين .

وقد قامت المقاهى مقام صورة معكوسة لبلاط السلطان الباذخ ، أو بالحرى ، انعكاس ساخر للثقافة العالية التى توجد هى الأخرى فى السراى . والفنانون الذين ظهروا فى مناسبات تلك الأعياد لم يخلدهم التاريخ ، ولكنهم نقلوا السمات الحية الثقافية لا تكف عن ان تثرى من جيل إلى جيل .

★ ★ ★

والواقع انه يكفى فى هذا المجال أن نفهم ان الأحداث التى تدور فى المقاهى ذات السمعة الطيبة تتكرر خفية فى خصوصيات البيوت ، وهذا ما يتضح لنا على كل حال فى نبذة كاشفة من رواية بين القصرين حيث يتغلغل بنا نجيب محفوظ فى الحياة اليومية ببيت تاجر قاهرى ثرى فى بداية القرن : « واجتمعت الأسرة ، ما عدا الأب ، قبيل المغرب ، فيما يعرف بينها بمجلس القهوة . وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الاخوة والاستقبال ورابعة صغيرة اعدت للدروس . وقد فرشت الصالة بالحصر الملونة ، وقامت فى أركان الكنبات ذوات المساند والوسائد . وكانت أمينة تجلس عادة على كنبة وسيطة ، وبين يديها مدفاة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتى النصف فى جمراتها التى يعلوها الرماد وإلى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صفت عليها الفناجين . ويجلس الأبناء امام أمهم سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمي (...) كانت تلك ساعة محببة إلى النفوس يستأنسون فيها إلى رابطتهم العائلية وينعمون بلذة السمر (...) وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحثان الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرأ لهم الطالع فى فنجان ، راح ياسين يتحدث حينا ويقرأ فى قصة اليتيمتين من مجموعة مسامرات الشعب حينا آخر . كان من عادة الشاب أن يهب بعض فراغه لمطالعة القصص والأشعار .

□ □ □

● جيرار جورج ليمير

مقاهى الشرق

□ نظرة أخرى □

المصورون المشاركون فى التقاط صور المقاهى فى العالم العربى . والمنشورة فى الكتاب .

أثينا - (اليونان) :

رودولف حمادى ، مصور فوتوغرافى معمارى . عمل مساعدا لإيرينا يونسكو وللرسام كورينى والمثال بوتشى دى روسى . اقام معارض عديدة وأعمالا : الأعمال الحديثة لأوسكار نييمير ، من الدرج إلى السلالم ، باريس ارابسك ، اسكندرية مصر . وهو فى الثانية والثلاثين من العمر ، ويقيم فى باريس ، حائز على منحة ليونار دوفينشى فى سنة ١٩٩٠ (من وزارة الشئون الخارجية)

تيسالونيكى (اليونان) :

فرانسواز نونيز . أتت إلى دار ضيافة الفنيين مرتين . بتسالونيكى . وتقوم الآن مع بيير ديفان وبرنار بلوسو بالإعداد لنشر كتابه عن تسالونيكى ، مرفق به نص لميشيل بوتور .

بيير ديفان . من مواليد سنة ١٩٤٦ بفالنسيا . يشترك منذ سنة ١٩٨١ فى المركز الاقليمى للتصوير الفوتوغرافى (شرق بادى كاليه) ، ويعرض أعماله فى فرنسا وبولونيا وانجلترا واليونان وسويسرا . وله مؤلفات كثيرة منها : فوتوغرافى (لندن سنة ١٩٨٩) الزاوية العريضة (بريتون سنة ١٩٨٩) ، الكاميرا الغامضة (اليونان سنة ١٩٨٩) فيج ١ باريس سنة ١٩٨٩ .

نيقوسيا (قبرص) :

نيكوس افراميدس . رسام مشهور من مواليد ليماسول ، ومصور فوتوغرافى كذلك ، يعرض أعماله فى قبرص وفى الخارج . نال فى سنة ١٩٨٩ الجائزة الأولى فى المسابقة الدولية للتصوير الفوتوغرافى التى أقامتها فيات ببروكسل .

استانبول (تركيا) :

باتريك لاكومب ، موظف بالاسكندرية ثم باستامبول . قدم فى هذه الأخيرة معرضا عن الحياة اليومية فى تركيا . أعماله فى التصوير الفوتوغرافى احتجزتها بلدية استانبول للمساهمة فى مهرجان جولهان باركى .

الاسكندرية (مصر) :

كريستوف بروسكووسكى ، من مواليد كازيميرز فى بولونيا ، ينشر اعماله فى التصوير الفوتوغرافى (الفن التطبيقى) فى فارسوفيا ونيويورك مرورا بالاسكندرية وباريس . اعماله موجودة فى المجموعات العامة بمتحف الفن الحديث (مركز بومبيدو) ومتحف متروبوليتان ومتحف الاليزيه بلوزان .

القاهرة (مصر) :

فرانسواز جوردن ، من مواليد داكار ، وتقيم حاليا فى مصر . وقامت بتحقيقات مختلفة فى التصوير الفوتوغرافى فى جوادالوب (كأس تصب السكر) وفى ساحل العاج (أسواق افريقية) وفى المغرب (الأسواق) وفى مصر (الأهرامات والبوابات الفرعونية ، ومشاهد من الشارع) .

الدوحة (قطر) :

نيكوتشيكارون ، مستشار ثقافى بسفارة فرنسا فى قطر . واضع هذا الريبورتاج ، ومترجم نص الواس موزيل .

بغداد (العراق) :

عادل الطاى ، بعد دراسات فى الرسم فى أكاديمية الفنون الجميلة ببغداد ، وفى التصوير الفوتوغرافى فى مدرسة الفنون الزخرفية بباريس أقام معارض كثيرة فى العراق وفى فرنسا .

عمّان (الأردن) :

فيليب بك ، مدرس يقيم فى مرسيليا . حقق ريبورتاچات كثيرة منها ريبورتاچ متميز عن الأردن .

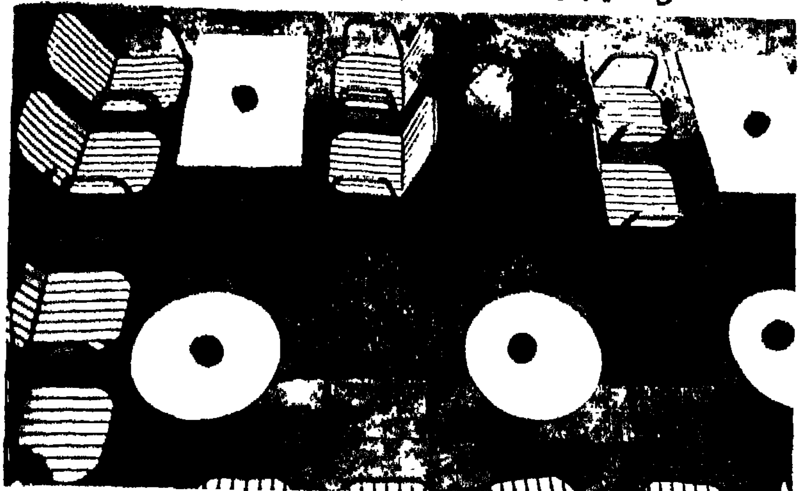
دمشق (سوريا) :

محمد رومى ، من مواليد حلب . دبلوم جامعة الفنون الجميلة بدمشق . اقام معارض فى الرسم والتصوير الفوتوغرافى فى فرنسا وسوريا والأردن . وعمل مع اليونيسيف واليونسكو ومؤسسات مختلفة .

□ □ □

مقاهى اليونان

مقاهى الفيلوموسا ـ اثينا ، (تصوير رودولف حمادى)



مقهى « الكافنيون » أصبح تعبير للحياة الاجتماعية اليونانية . لا يقدم فيها الخمر وإنما الأوزو[1] فحسب ، وتقدم معه المزة . وهناك فن كبير ورقيق وشاق فى احتساء كاس الأوزو خلال ساعات . بضع قطرات متتابعة لترطيب اللسان الذى جف لفرط الحديث ، كما يقول لاريس فاكينوس « اثينا » ولكن « الكافنيون » اكثر من اى شىء ، مكان لتناول القهوة ومعها ، دائما كوب من الماء البارد .

والواقع ان المرء يشرب قليلا من الكافنيون ، ذلك المكان المبدد للقلق ، كما يقول جاك لاكاريير فى كتابه « الصيف اليونانى » ، فالناس تنفرد فيه طواعية ، حبا للمناقشة ، والتعليق على اقوال الصحف بكل اهتمام ، وتقام فيه اجتماعات قبل الانتخابات . ولكن إذا وجد اليونانى فيه مجاله السياسى ، فإنه لا يزدرى مع ذلك مجاله للهو والترفيه فيتناوب لعبة الدومينو والبلياردو والطاولة ، ويقذف الزهر وهو يصخب ويحتسى الأوزو فى نفس الوقت

---

(١) العرقى .... (اثينا)

● مقهى زونار « أثينا » تصوير : رودولف جمادى



تطل مقهى الكافنيون على الشارع بضجيجه وعجيجه ، وتجذب إليها بالطبع الصحفيين والكتاب . كان بالماس يجد فيه فى سنة ١٩١٦ « أجمل منعزل . الانفراد وسط الجمهور ، والسلام وسط الصخب ، والدراسة وسط الضوضاء .. » وتاثير المقاهى الباريسية الأدبية (مقهى فولتير ، والقط الأسود وغيرها) فى الفترة ما بين الحربين يظهر من خلال الكتاب الذين عاشوا فى فرنسا بظهور المقاهى الأدبية ، فتجد فيها تيراكيس وهاتزوبولوس . وفارناليس وبابا ديامانتيس .

بعض هذه المقاهى أغلقت أبوابها . والبعض الآخر كمقهى « البيزانتيو » وأورالا « هيللى سى » تحولت ، الأولى إلى محل فاخر للحلوى ، والثانية ، وتقع فى حى بلاكا ، إلى مقهى ومركز لعرض الفن الشعبى ودورهما الاجتماعى قائم اليوم على الحلوى : « محل زونار » بشارع بانبستيميو ، وصالونات شاى على الطراز الباريسى « فيلوموسا ببلاكا » وحانات تقليدية لتقديم الأوزو : حانة بلاتان بشارع بلاكا وحانة « أبو ستوس » بشارع بانبستيميو ، وهذا الأخير مكان مشهور للقاء الرجال السياسيين .

● مارى هيلين ستافرو
أثينا

وكان المساء سحرا للعيون من نوع آخر ، فقد كان كل شيء ورديا أو ذهبيا . وكان للأوليمبي ظلال من الجمر أو من المعدن المذاب ، تنعكس في بحر أملس كالجليد . لم يكن في الهواء اي دخان ، وبدا كانه لم يعد هناك جو ، وكان الجبال تتجزأ في الفضاء البعيد إلى حد أن أكثر نتوءاتها بعدا كانت محددة المعالم وواضحة تماما .

★ ★ ★

كنا نجلس في أغلب الأحيان على الشاطيء ، حيث يتجمع الجمهور أمام ذلك الجون الهاديء . وكانت آلات الطرب بمقهى باراري دوريان تعزف الحانها الغريبة تصاحبها الجلاجل والقبعات الصينية ، والقهوجية يزحمون الطريق العام بموائدهم الصغيرة الحافلة دائما بالطلبات ولا يلاحقون تلبية طلبات جميع مدخني النرجيلة ، وطلبات القهوة واللوكوم والعرقي .

● بييرلوتي - ازيادة



تاسس هذا المقهى والمطعم سنة ١٩٢٢ باندماج محلين الأوليمبوس والناووسا ، بناه مهندس فرنسي يدعي جوزيف بليبر فوق قطعة ارض شب عليها حريق سنة ١٩١٧ ، واشتهر المشروب والمطعم شهرة كبيرة في ذلك الوقت ، واستقبل كثيرا أوركسترا بوخارست قبل أن يتحول في سنة ١٩٢٦ إلى مطعم حقيقي . وهو الآن أحد الأماكن التي تفضلها عائلات سالونيك البورجوازية التقليدية ، في الظهر وفي الأسبوع .

● تسالونيكي ● قاعة مطعم أوليمبوس ـ ناووسا

تصوير : بيير ديفان

مذكرة من ماكرونيوس . الجرسون يتقدم وفى كل يد من يديه كرسيان يضعهما ميخاليس حول المائدة ، تاركا مسافة خالية ناحية الوادى . واخرج الجرسون من جيبه ورقة كبيرة بيضاء ومفارش والملاحة . وبسط المفرش وسال :

— هل تنتظر اشخاصا آخرين ؟

قال جاريلاس وقد عرف باراسكوس ، المولى ظهره بشجرة التوت ، فى الظل .

— شخصان آخران .. كلا . بل شخص آخر .

قال الجرسون : لم يعد يوجد لحم . هل تريد بيضا وجبنا مقليا وانشوجة وسلطة ؟

ساله ميخاليس : والنبيذ ؟ .. كيف هو ؟

— لا باس به .

واخذ الجرسون الطلب وانصرف . كانت المقهى تقع فى الناحية المواجهة لبيت تركى عتيق ، بشرفة صغيرة ودرف مغلقة . وكانت قناديل الحانة تنير المارة فى غموض ، وبضعة أطفال يعبرون منطقة النور راكضين ، ثم لا تلبث أن تسمع أصواتهم الحادة البرمة فى جوف الليل ، من بعيد ، وراحت دراجة بخارية تصدر صريرا حادا متقطعا بصورة مزعجة ، كما لو كان أبو الفصاد يصر فى قلب الظهر .

● ستراكيس تسيركاس
مدن على غير هدى

● تسالونيكى



● الناشر ستافروس بتسوبولوس فى مطعم أوليمبوس ناووسا بتسالونيكى .

تصوير : فرانسوا نونيز

هناك على الخصوص الدفايات .. دفايات فى المقاهى المخصصة للرجال ، فى مطعم أوليمبوس ناروسا حيث تتابع العين المواسير التى تمتد حتى السقف وحتى خزاناتها الكئيبة التى استحال لونها حتى أصبح كلون السبانخ المهروسة التى يجملون بها الأطباق .

● صوفى باسك
● سالونيك ، الساعة العاشرة والدقيقة السابعة والثلاثين ديسمبر سنة ١٩٨٩ .

من رواد المقهى المعتادين الناشر بتسوبولوس الذى ندين له بنشر هذا الكتاب ، بين غيره ، باليونانية ، ودى جينيه وباتاى ودورا وهنرى جيمس هو الآخر ول . كارولى ستيفنسون .



٢ ● « ملتقى الأصدقاء » بليماسوس

● تصوير : نيكوس أفراميدس

« ملتقى الأصدقاء » يقع فى الحى القديم للمحلات والسوق . كان الرجال يقصدونه فيما سبق ، من قراهم ، عندما يأتون إلى المدينة لبيع منتجاتهم . ولا يزال القبارصة يرتادونه بكثرة . ويتناولون فيه القهوة التركية . مضبوط أو على الريحة أو سادة .

● نيقوسيا



● مقهى قديمة بجوار محكمة العدل بليماسول
● تصوير : نيكوس افراميدس

● واحدة من أقدم مقاهى المدينة حيث يلتقى المحامون والاطباء بين غيرهم من الناس . ولا يزال يرتاده اليوم رجال من الجيل القديم .

● نيقوسيا

□ مقاهى تركيا □

بعد أن تجولنا فى كل الأماكن المالوفة باستانبول ، ودخنا أعدادا كبيرة من النرجيلة ، وطفنا بجميع المساجد ، تواجدنا فى المساء فى أيوب ، وقد عدنا مرة أخرى إلى ذلك المكان ، حيث لم أعد غير أجنبى لا مأوى له ، سرعان ما تمحي ذكراه .

أحدث دخولي مقهى سليمان أعمق الأثر ، فقد كانوا يحسبونني اختفيت وانتهيت إلى الأبد حقا .

كان الحاضرون في تلك الليلة كثيرين ، ومن خليط مختلف ، رؤوس كثيرة جديدة تماما ، ومن أحياء مختلفة . جمهور من الصعاليك والحثالة تقريبا .

ومع ذلك فقد دبر أحمد حفلة وداع من أجلي ، فجاء بأوركسترا : مزماران لهما صوت حاد كصوت مزمار القرية ، وأرغن وصندوق كبير .

.ورضيت بهذه الاعدادات على وعد قاطع بأن لا يتحطم شيء وأن لا أرى دما يراق .

سوف نلهو الليلة كثيرا ، وأنا نفسى لا أتمنى أكثر من هذا .

جاءوني بنرجيلتى وفنجانى من القهوة التركية ، وكلفوا أحد الصبية بتجديدهما كل ربع ساعة . وأخذ أحد الحاضرين من أيديهم ، وجمعهم في دائرة ودعاهم إلى الرقص .

★ ★ ★

بدأت حلقة طويلة من الوجوه الجديدة فى الرقص امامى ، على ضوء الفوانيس المضببة ، وراحت الموسيقى الحادة ترج اعمدة المكان ، والأدوات النحاسية المعلقة لصق الجدران السوداء تهتز وتصدر صريرا معدنيا ، والمزماران يطلقان نغمات حادة ، والفرحة الكبيرة تدوى فى جنون .

وبعد ساعة كان الجميع يتخبطون ، نشوانين من الحركة والصخب . كانت الحفلة حسب المنى والمرام ، وانا بالذات لم اعد أرى شيئا إلا من خلال ضبابة ، وامتلأت راسى بالأفكار الغريبة المشوشة . وراح الناس يجيئون ويروحون متعبين لاهثين ، فى الظلام ، والرقص دائر دائما وأحمد فى كل دورة يحطم لوحا من الزجاج بظهر يده .

وتحطمت ألواح المقهى كلها ، الواحد بعد الآخر ، وتناثرت شظاياها ، وراح الراقصون يطأونها ويسحقونها باقدامهم . ويد أحمد المتشققتان بجروح عميقة تلوث الأرض بالدم .

□ □ □

● استانبول



● منظر لصالون أجاثا كريستى فى بيرا بالاس
باستانبول .   تصوير : باتريك لاكومب

الإسم وحده أسطورة ، أسطورة قطار الشرق ، ملتقى مشاهير الشخصيات ورؤوس أوروبا وغيرها المتوجة تشترك فى أسرار الشرق الكبيرة . لم يستطع الكتاب مقاومته . بيير لوتى وبريس وهيمنجواى وكلودفارير .. وعلى الخصوص أجاثا كريستى التى نافست جريتا جاربو وجوزنين بيكر وماتا هارى فى الظهور فيه .

● استانبول

دخلت مقهى تركية بجوار مسجد بايزيد هربا من المطر .

لا شيء فى تلك المقهى غير عمائم قديمة ولحى كبيرة بيضاء . شيوخ (حاجى بابوات) جالسون منهمكون فى قراءة الصحف أو النظر من خلال الألواح التى سودها الدخان إلى المارة الذين يجرون تحت المطر . سيدات تركيات فاجاتهن المطرة يجرين بالسرعة التى تسمح بها لهن أحذيتهن الخفيفة وقباقيبهن . كانت هناك فوضى كبيرة فى الشارع وبين الناس . هرج ومرج كبيران ، وتدافع ، والمطر ينهمر مدرارا .

ألقيت إلى الشيوخ الذين يحيطون بى نظرة خاطفة . ملابسهم تدل على محاولة دقيقة للاحتفاظ بمودات الأيام الخوالى الحلوة . كان كل ما يرتدونه « اسكى » ، حتى نظاراتهم الفضية الكبيرة ، وحتى ملامحهم المغضنة ، و « اسكى » كلمة ينطقونها بكل احترام ، ومعناها « قديم » وتنسجم فى تركيا مع البدل القديمة وانماط الملابس أو الأقمشة القديمة . ان الاتراك مغرمون بالماضى ، ويحبون السكون والركود .

★ ★ ★

في المقهى التركية لصاحبها سليمان القهوجي يوسعون الدائرة حول النار . وعندما وصلت أنا وصمويل وأحمد ، سلمت على كل الحاضرين باليد ، وجلست لكي أصغي لراوى سهرات الشتاء « القصص الطويلة التى تستمر كل منها ثمانية أيام والتى يتخللها ذكر الجن والجنيات » وتمر الساعات دون تعب ودون ندم ، وأجد نفسى مرتاحا بينهم ، ولا أشعر أبدا بالاغتراب .

● بيير لوتى - أزيادة

● استانبول

● مقهى بيير لوتى ، استانبول
● تصوير : باتريك لاكومب



تقع هذه المقهى فى حى أيوب ، فوق تل يشرف على الساحل الذهبى . والمفروض أنها آوت غراميات بيير لوتى وازيلاده .

أن تخرج صباحا من « الأتميدان » لكى تصل ليلا إلى ايوب ، وأن تطوف ، وفى يدك مسبحة . بالمساجد ، وأن تمر بكل المقاهى والمدافن والأضرحة والحمامات والميادين ، وأن تحتسى القهوة فى الفناجين الصغيرة الزرقاء ذات القاعدة النحاسية ، وتجلس فى الشمس ، وتتامل فى هدوء ، وأنت تدخن النرجيلة وتتحدث مع الدراويش ، ومع المارة ، وأن تكون انت نفسك جزءا من تلك اللوحة الزاخرة بالحركة والنور ، وأن تكون حرا ، لا تبالى بأى شىء ، وأن تفكر أن الحبيبة سوف تنتظرك فى البيت فى الليل .

● بيير لوتى - أزيادة

□ مقاهى الاسكندرية □

رايتها كل يوم ، طوال شهور . ولكن جمالها الهادىء لم يوقظ فى أى إحساس . كنت ألتقى بها كل يوم ، وأنا ماض فى طريقى إلى مقهى « الأقطار » حيث ينتظرنى بلتازار ، وقبعته الزرقاء مضغوطة فوق رأسه ، لكى يعطينى « الدرس » . لم يخطر ببالى أننى قد أغدو عشيقها .

كنت احسد الجرأة التى تشق بها جوستين طريقها فى تلك الشوارع التى تفضى إلى القهوة حيث أنتظرها : « الباب » الباب ذو القبة المحطمة ، حيث نجلس بكل براءة ونثرثر ، ولكن حديثنا كان لا يلبث أن يتخذ مضمونات كنا نعتبرها بشائر صداقة طاهرة وبريئة .

التقيت به ذات يوم فى بار ، وبقيت نصف ساعة تقريبا جالسا على مقعد عال بجواره . كنا نتلهف على تبادل الحديث ، ولكن لم يجد اى منا الجراة على أن يكون البادىء . كانت مليسا هى الموضوع الوحيد المشترك بيننا للحديث . ورأيته وأنا منصرف ، فى إحدى المرايا الطويلة التى تكسو الجدران ، مطرق الراس ، والنظرة شاردة فى عينيه .

كانت أولى المصابيح الباردة والباهتة الضوء قد بدأت تضفى ظلامها على الخلفية القماحية للوحة الاسكندرية الرطبة . والمقاهى الصغيرة على شاطىء البحر تلقى اضواء فوسفورية باهتة ترتعد فى الهواء الدبق .

● لورانس داريل ـ رباعية الاسكندرية

فى نفس اليوم كان رجل غريب يجلس فى الركن المعتاد المحجوز لبلتازار فى مقهى « الاقطار » ويحتسى عرقى . وهو العرقى الذى كان فى نيته هو بالذات ان يطلبه . كان الرجل يشبهه بشكل غريب ، مع ان ذلك الشبه كان مشوها فى المراة بتكشيرة كشفت عن أسنانه الشديدة البياض ، ولم يشا ان يرى اكثر من ذلك واسرع إلى الخارج .

وفى شارع فؤاد احس فجاة ان الرصيف اصبح رخوا تحت قدميه ، كالاسفنج . وكان قد غاص فيه إلى النصف من جسده عندما تلاشى الوهم . وفى الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم صحا من نوم محموم ، وارتدى ثيابه وخرج لكى يتاكد من الإحساس القاهر بأن سترودس ومقهى دوردالى خاليان .

وفى النهاية ، تذكر نسيم مقهى صغيرة قديمة فى المكس حيث يمكنه أن يجد بيضا مسلوقا وقهوة . ورغم ان الوقت كان لا يزال مبكرا فقد نهض صاحب المقهى . وهو يونانى ، ووضع لهما ، والنعاس لا يزال يغالبه ، كرسيين تحت شجرة تين عقيمة ، فى فناء مملوء بالدجاج ومخلفاتها الهزيلة .

● لورانس داريل ـ رباعية الاسكندرية



● بسترودس بالاسكندرية

● تصوير : كريزستوف بروكووسكى

صالون شاى بشارع فؤاد ، يعتبر احد الأماكن الممتازة للقاء فى رباعية الاسكندرية . وهذا المحل لا يزال راقيا ومتميزا حتى اليوم . ظل المقر العام للجالية اليونانية مدة طويلة . كان كفافى يقضى جل وقته فى المطالعة فيه . ويشير تسيركلس اليه . أما انجاريتى الذى ولد فى الاسكندرية وقضى شبابه فيها فانه يصفه ويقول عنه « المكان الراقى جدا » حيث تطرى وتغتاب فيه سمعة النساء الجميلات اللاتى يتواعدن على لقاء عشاق الأمس فيه .



● جائزة نوبل فى سان ستيافنو بالاسكندرية
● تصوير : كريزستوف بروكووسكى

من عادة نجيب محفوظ أن يقضى الصيف فى الاسكندرية . ويلتقى الكاتب العربى الأول الحائز على جائزة نوبل فى ساعة محددة من عصر كل يوم . فى سان ستيفانو ، باصدقائه : شعراء وكتاب الاسكندرية . من السهل ارتياد هذا النادى . ويحتسى رواده القهوة فى الهواء الطلق وهم مولون ظهورهم للبحر القريب ، ومحفوظ يعلق على أحداث اليوم وهو ممسك بمقبض عصاته وكله ابتسام .

□ مقاهى القاهرة □

بعد أن تناولت الغداء فى الفندق مضيت وجلست فى اجمل مقاهى الموسكى؛ رأيت لأول مرة العالمات ترقص أمام الجميع . وددت حقا أن أصف المشهد قليلا ، ولكن الواقع انه ليس بالديكور زخارف سواء كانت زهوراً أو عمدانا أو خزفا أو بيض نعام معلقا . انك لا تجد مقاهى شرقيه هكذا إلا فى باريس . ولك بالأحرى أن تتصور دكانا مربعا متواضعا مطليا بالجير كل ما فيه من زخارف لوحات مرسومة متكررة لساعة كبيرة موضوعة وسط مرج بين شجرتى سرو . وباقى الزخرفة يتكون من عدد من المرايا المرسومة هى الأخرى والمفروض انها تعكس جمال غصن نخلة تنتثر فيه قارورات زيت تسبح فيها مهارات ليلية ، وهو منظر له تاثير لا باس به فى المساء .

وتنتشر حول المكان أرائك من الخشب الخشن ، يحيط بها اقفاص من النخيل تستخدم كمساند خفيضة لأقدام المدخنين الذين توزع عليهم من وقت لآخر الفناجين الصغيرة الأنيقة التى سبق أن تكلمت عنها . هناك يجلس بطول الجدار ، الفلاح بصدرته الزرقاء ، والقبطى بعمامته السوداء أو البدوى بمعطفه المخطط ، ويرون فى غير دهشة أو اى ظل من الاستغراب الفرنجى يجلس بجوارهم . والقهوجى يعرف انه يحب أن يحلى فنجان هذا الأخير جيدا .

ويبتسم الجميع لهذا الإجراء الغريب . والموقد يقع فى ركن من الدكان ، وهو فى العادة أثمن شيء فيه . والمنصة الموضوع فوقها مزينة بالخزف المدهون والمزين بخطوط ملتوية تشبه أشكال المحارة والصدف ، وقريب الشبه بالمواقد الألمانية ، وفوق المنصة العديد من التنكات النحاسية الحمراء ، لأنه لابد من أن تغلى تنكة لكل فنجان من تلك الفناجين الكبيرة كظروف البيض .

جيراردى نرفال « رحلة فى الشرق »

● القــاهــرة





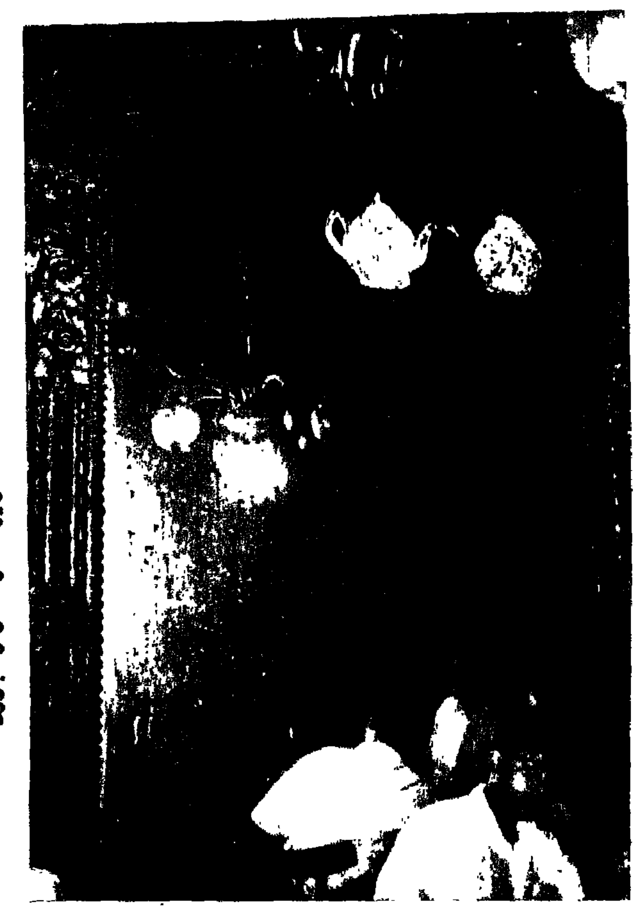
● مقهى بأحد شوارع حى الباطنية بالقاهرة
● تصوير : فرانسواز جورن

« طالما تواعد قاهرى مع قاهرى آخر على اللقاء فى « مقهانا » فيمكن التحدث عن مقاهى القاهرة وما تمثله من ضرورة فى حياة المصريين بالمدينة الكبرى .. ولكن إلى متى أيضا » جمال الغيطانى (القاهرة ، مطبوعات دار أوترمان .) إذا لم تعد مقاه أدبية فى مصر فان هذه المقاهى الصغيرة ، التى يرتادها المرء وهو فى عجل من امره سوف تبقى .

أول ما يشعر به المرء فى تلك المقاهي هو إحساسه بانه دخل فجاة حيا مختلفا ، بل ربما حتى دنيا أخرى . وربما ايضا عصرا آخر ، فهناك هدوء ، وضوء معين أخضر فاتح سرمدي يبعث الطمانينة إلى النفس . رواده القلائل كانوا يجلسون البعض بعيدا عن البعض الآخر . صامتون وهادئون . حتى هذان المنعزلان اللذان يلعبان الطاولة . وطالب من الأزهر ، وهو قريب جدا ، منحن فوق ورقة من الورق الشفاف وضعها على ركبتيه وراح ينسخ بقلمه صفحة من كتاب مجلد بالذهب ، وافندى يضع فوق عينيه نظارة نظر ويسبح على مسبحة خفية وهو ينظر إلى دنياه الداخلية . والمناضد الصغيرة التى كان لونها اخضر فيما سبق تستقر فى اتزان فوق الأرض الممهدة بالشارع الصغير . والواقع أن المقاعد والمناضد تتجاوز المقهى وتشغل مساحة ملتقى الطرق ، فلا تمر به عربات حنطور ولا عربات يد ، والشحاذون والمتشردون والمتسكعون وجامعو أعقاب السجائر والباعة المتجولون يخفضون أصواتهم ويمشون فى سكون بمجرد أن يمروا تحت التند التى تغطى مفترق الطرق ، فهناك يمضى الوقت بطريقة مختلفة . وصخب الشارع يهدأ ، وكل شيء يكتسب قيمته الحقيقية التى لا تتغير . الأفكار والحنين والأحلام والشاى الأخضر ، وهو نعناع مغلى ، يقدم فى أقداح صغيرة رخيصة ولكنها بأحلى الألوان . واللبلاب الذى وجد الوسيلة لكى يؤصل جذوره ويتسلق فوق الأبواب ، وعصافير الكناريا التى تزقزق فى أقفاصها الخضراء ، والجرسون ، وهو خصى ، بصوته الرخيم المرتفع .

● ستراتيس تسيركاس

● القـاهـرة



● مقهى الفيشاوى ، خان الخليلى ، القاهرة

● تصوير : فرانسواز جونث

تقع هذه المقهى القديمة بجوار جامع الأزهر الكبير ، وهى مشهورة بمراياها طراز سنة ١٩٠٠ بإطاراتها الذهبية التى ذهب رواؤها .

□ مقاهى قطر □

إعداد القهوة

النساء في المخيم هن اللاتي يقمن بالطهى فى الحى فهو حيهن . أما القهوة فتعد عند الرجال ، فما أن يصدر الامر : « فلتؤجج النار لأجل القهوة » حتى يسرع عبد او الابن او الزوجة او الابنة واحيانا صاحب الخيمة نفسه ، فيقدح القداحة ويشعل النار فى عود جاف من الشيح ويحركه فوق راسه ليلهب شعلته ثم يضعه تحت الخشب ، ويضع بجوار النار بعد ذلك ملقاطين كبيرين ثم يخرج التنكات من سلة من الخيزران او من الحوض .

وهناك فى العادة اربع تنكات ، تعرف اكبرها باسم « المطبخة » أو « القمقم » يوضع فيها طوال ايام كثيرة تفل البن ، ويصب عبد الماء فوق التفل ، ويضع التنكة بجوار النار . اما التنكات الأخرى فتشطف ويفرغ ما فيها فى التنكة الكبيرة ثم تنظف بقطعة من وبر الجمل وتوضع بعد ذلك على يمين الموقد حيث يوجد ابريق من النحاس وقدح مستدير من الخشب قطره نحو عشرة سنتيمرات وعلوه نحو ستة ويستخدم كوعاء .

★ ★ ★

وتخرج صاحبة الخيمة من حقيبة جلدية أو من كيس من الصوف أو من صندوق الجلد حفنة من حبوب البن يضعها عبد في مقلاة لها يد طويلة تستخدم لتحميص البن ويسمونها « محمصة » ويضع المقلاة فوق النار ، ويقلب الحبوب بملعقة من المعدن مثبتة في يد المقلاة بسلسلة طويلة من النحاس . وما أن تبدأ الحبوب فى الاسمرار حتى يسرع فى تقليبها لكى يتسق لونها . وعندما تسمر تماما ، يقلبها فى طبق كبير من الخشب به يد طويلة لكى تبرد . ويسمون هذا الطبق « البرادة » وفى أثناء ذلك يصب الماء المغلى من التنكة الكبيرة فى المتوسطة التى يضعها بجوار النار . ويأخذ هاونا من الخشب المنحوت وينظفه ويضع فيه حبوب البن المنزوعة من قشورها ، ويتناول بيده اليمنى يد الهاون الخشبية الطويلة ، ويضغط الهاون بين ركبتيه ، ويطحن البن . وكل خمس أو ست دقات يقرع يد الهاون على حافته ليسقط ما علق بها من مسحوق . واغنية اليد والهاون تسمع فى كل الأرجاء ، ويعلق عليها الجميع . هل هى منتظمة ؟ وهل يدقها النادل ببراعة ، فان طحن البن فن يتطلب مواهب موسيقية . وعندما يصبح البن ناعما كالدقيق ، يقلبه العبد فى يد اليمنى أو فى التنكة المتوسطة راسا ويغليه فيها . ويسمون هذه التنكة « المصفاة » ويلف العبد قطعة الصوف التى نظف بها التنكة على المقبض ويبقى التنكة فوق النار وهو يحرص على أن لا تفور القهوة . وعندما تصبح جاهزة ويبهت لونها يرفع التنكة ويضعها بجوار النار لكى تهدأ . ثم يأتى ببعض حبوب الحبهان ، وبحفنة من الزعفران كذلك ويضع الجميع فى الهاون ويطحنه . ويصب المسحوق فى التنكة الثالثة ، وهذه التنكة التى مزجت فيها القهوة بالبهارات تسمى « مبهرة » . ومن صندوق من النحاس أو من قفص يخرج العبد فناجين صغيرة من الفخار ، ويصب قليل من الماء فى كل منها ثم ينظفها بقطعة من القماش يلفها حول ابهامه . ويصف الفناجين فوق صينية من النحاس . وعندما يتم إعداد القهوة الممزوجة بالبهارات يصب قليلا منها فى التنكة

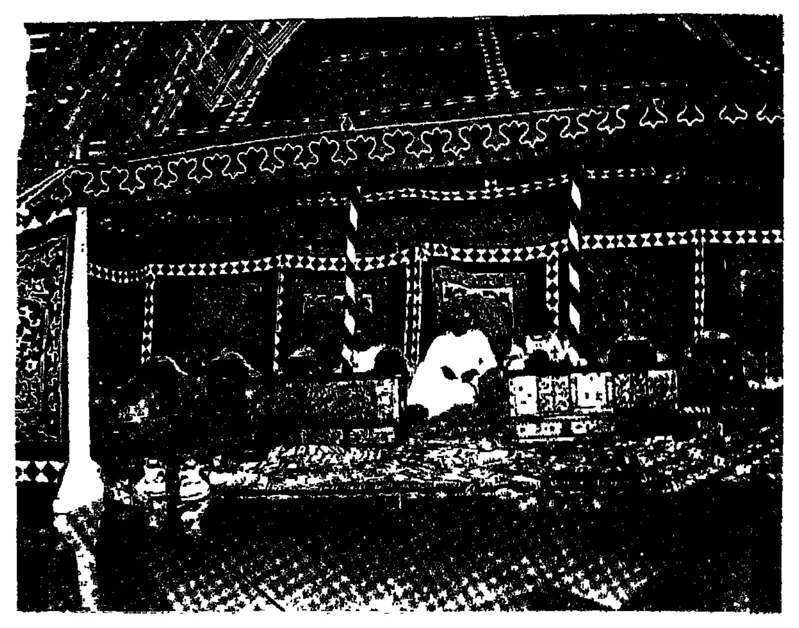
الرابعة والأصغر ، ويصب بضع قطرات من القهوة فى فنجان ويسكبها على الأرض ، تضحية لصدرى ، أول من صنع القهوة .

★ ★ ★

ويصب لنفسه عندئذ ، ويفحص اللون ، ويخرج جرعة ، ويفرقع بلسانه ويتذوق القهوة اخيرا ، وإذ يفرغ من ذلك ياخذ بيده اليسرى من اربعة فناجين إلى ستة ، من المصفوفة فوق الصينية ، ويصب فى كل منها خيطا رفيعا من القهوة . وما ان تغطى القهوة قاع الفنجان حتى يناوله لأقرب الضيوف . وياخذه هذا الأخير بيده اليمنى ويرشف رشفة ويفرقع بلسانه ، ويتذوق المشروب فى بطء فمن غير اللائق ان يشرب القهوة جرعة واحدة ، ويخدم العبد باقى الضيوف . وعندما يفرغ الضيف الأول من فنجانه يملأه له ثانية . ويدير القهوة على باقى الرجال . ويجب على الضيف ان يرفض مرة رابعة حتى ولو كان لا يزال ظمآن ، ولكنه يمكنه مع ذلك ان يتناول قهوة من جديد بعد فترة .

● الواس موزيل
عادات وتقاليد بدو الروالا

● الدوحـة



● قهوة تقدم فى خيمة بدوية تقليدية ، الدوحة
● تصوير : نينو سيتشارون



● لاعبو الورق فى استراحة هواة الصيد ، الدوحة
● تصوير : نينو سيتشارون

يا للقهوة ، المشروب اللذيذ الذى يفضله الحكماء !
انت أيتها القهوة ، انك لتبددين الهموم ، وانت المشروب المفضل .
عند الحكماء وأحباب الله . انك تمنحين صحة لمخلوقات الله الذين يحاولون ان يكونوا حكماء .
ان شذاك يزرى شذى المسك ، ولك لون الحبر الذى يغمس فيه القلم الذى يسطر تسبيحات الله .
والمؤمن الذى يتذوقك هو وحده الذى يعرف الحقيقة .
أيتها القهوة .. ايها المشروب المفيد كاللبن والذى لا يختلف عنه إلا باللون .
كل الأحزان تتوارى امام فنجان من القهوة ، كما تتوارى العصافير عندما تلمح الصقر .
لم يمر وقت طويل منذ أن رآها واد باليمن تولد ، وإذا كنت فى ريب من ذلك فانظر إلى نضرة الشباب التى تتألق على خدود محبيها .
انها مشروب أبناء الله ، وهى منبع الصحة ، والسيل الذى يكتسح همومنا . انها النار التى تفنى أحزاننا . من يتذوق القهوة لا يسعه بعد ذلك إلا ان يكره الخمر .
يا للمشروب اللذيذ ! ان لونه هو الصِّبغة التى تدل على نقاوته .
تناول الكثير من القهوة يا أخى ولا تصغ للحمقى الذين يلعنونها بدون سبب .



□ مقاهى بغداد □

تجد المقاهى فى بغداد القديمة فى كل مكان تقريبا ، على نواصى الأزقة ، ومفارق الطرق ، وعلى شاطىء البحر ، وفى الأسواق ، بجوار المساجد .

بين جدران تلك المقاهى المخصصة بكل صرامة للرجال ، يتكوم الحكماء فوق أرائكها ، يدخنون النرجيلة ويستمتعون بالشاى أو بالقهوة التركية وهم يغيرون الدنيا .

نبذة من كتاب المقاهى وخاصيتها فى بغداد القديمة
لنورى حمودى القيسى



مقهى مسجد الاسكافيين ـ بغداد
● تصوير : عادل الطاى



مقهى مسجد الاسكافيين ـ بغداد

● تصوير : عادل الطاي

لكل طائفة مقهاها . فيلتقى التجار في مقهى الحاج حسن ، بخورجة التى لا تزال حتى يومنا هذا أكبر سوق فى بغداد ، ويتناقش الشعراء ورجال الأدب في ألف ليلة وليلة وعنتر وعبلة في مقهى أصفهانى ، بجوار السراى . أما الصناع والبناءون ، الذين يشتغلون من طلوع الشمس حتى غروبها فيستريحون في مقهى الحاج محمد القهوجى ، الذى يمون نرجيلتهم بأجود أنواع التنباك التركى الذى يستورده له خصوصاً تجار استانبول وهم يتوقفون يومين أو ثلاثة فى خان « مرجان » ، صاحب أشهر خان للقوافل وذلك أن يستأنفوا طريقهم نحو البصرة .

نبذة من كتاب المقاهى وخاصيتها فى بغداد القديمة
لنورى حمودى القيسى

□ مقاهى الأردن □



● مقهى خورى ، واحة معان ، بين عمان والعقبة
● تصوير : فيليب بك

تقع هذه المقهى فى مدخل واحة معان ، بين عمان والعقبة ، على الطريق الصحراوى ، وتعتبر استراحة لكل السائقين فى كل البلاد . سائقو الشاحنات الكبيرة ، والسياح العائدون من بترا ، والسعوديون الذين يبحثون عن المنتجات الاستهلاكية . كل شىء فى مقهى خورى أحمر : النيون والجدران والحصائر والسجاجيد .

● عمـــان



● مقهى خورى ، واحة معان ، بين عمان والعقبة
● تصوير : فيليب بك

مئات من الأشياء التذكارية ، وصور لا تحصى فى إطار العائلات الملكية بالأردن والعربية السعودية تملأ هذه الحانة الشبيهة بكهف على بابا . والسيد خورى سائق لورى قديم ، بذل جهدا كبيرا طوال سنوات (لتشييد) قصره المثالى .

● عمـــان

□ مقاهى دمشق □

قبل ان يعود المرء إلى بيته ، فمن اسهل الأمور أن يمضى إلى المقهى ليتناول قدحا من الشاى الثقيل جدا والمحلى جدا ، ويلعب الطاولة أو الكتشينة ، ويدخن نرجيلة ، ويتبادل ليها الطويل وغليونه مع أصدقائه ، فى كياسة كبيرة .

يوجد فى بعض هذه المقاهى حكاواتى ، راو لقصة عنتر ، وهو رجل حسن عادة ، بنظارة ضخمة ، ولحية قصيرة . ويجلس فوق مسطبة ، خلف درج ، ويعكف كل ليلة على قراءة القصة بصوت مرتفع ، ويصغى إليه الجميع وهو يحبسون انفاسهم . وفى آخر كل حلقة ، عندما يكون الاهتمام على أشده ، والفضول قاهر والعقدة مثيرة يتوقف ويطبق كتابه ويعد المستمعين بتكملة بقية القصة فى اليوم التالى .

ويحدث أحيانا أن يتحيز بعض المستمعين للبطل أو لغريمه وترتفع المناقشات الحادة ، ويتراهن المستمعون على كيف تكون النهاية ، إلى حد أن أكثرهم تحمسا لا يستطيعون الصبر حتى اليوم التالى ، فيمضون ، فى وقت متاخر من الليل إلى بيت الحكاواتى ، ويوقظونه من نومه لكى يسمعوا كلمة تهدئهم . ويضطر الراوى فى أغلب الأحيان إلى إرضائهم لكى يتجنب مشاجرة .

● انجيلوس كوسيروجلى
دمشق الأيام الخوالى



● مقهى قلمون ، باب العمارة ، دمشق
● تصوير : محمد رومى

هذه المقهى إحدى اواخر المقاهى التى مازالت تخلد عادة « الحكاواتية » ، الرواة العموديون . وقد انشئت فى سنة ١٩٥٠ . ويقول ياسر الحلاق . ابن صاحبها « إن شغف الزبائن ينقسم بين هواة رواية عنتر ، وقراءتها تسبب دائما نزاعا بين أنصار البطل ومشنعيه ، وبين عاشقى ملحمة بيبرس ، والجميع يرون انها أكثر فائدة وتثقيفا . وابو محمد الحكاواتى ، ٨٠ سنة ، من مواليد حلب ، وانتقل إلى دمشق فى سن مبكرة . حيث امتهن مهنة الراوى فى أكثر المقاهى شهرة ، كمقهى النوفارا والمصلابة .. وهو اليوم يتابع مهنته فى مقهى قلمون ، بين صلاتى المغرب والعشاء ثم ينهى سهرته فى مقهى بيبرس بباب البريد .

مقاهي دمشق كثيرة وانيقة ، اغلبها مبنى على هيئة اكشاك من الخشب المطلى بألوان مختلفة السائد فيها اللونان الأخضر والأزرق . ومفتوحة من جميع النواحي فيما عدا تلك التي يرتفع فيها اللبلاب المتسلق بطول الأعمدة التي ترتفع فيرتكز عليها السطح . وفي الداخل أريكة تدور بالمكان من كل جهة وعليها ، بين مسافة وأخرى . مساند (...) ولكن المقهى من الخارج رائعة لا يفوقها روعة إلى الموقع الذى تقع به . والمقاهى عادة تقع على شاطىء بعض الجداول ، حيث ترى مساقط مياه جميلة وبساتين (...) وهمسات المياه تهدهد الأذن برفق ، فى حين تستريح العين .

● ج . روبنسون

● مقهى توليدو ، هومز

● تصوير : محمد رومى



عند إدخال آلات القهوة « الاكسبرسو » فى سوريا فى الخمسينات ، جرت المودة عندئذ على تسمية المقاهى الجديدة « البن البرازيلى » . وسرعان ما أصبحت تلك الأماكن ملتقى الرجال السياسيين والصفوة الفنية والأدبية . وهكذا التقى فى مقهى « الهومز » صبحى شعيب ، واحد من أوائل الرسامين السوريين ، وعبد المعين ملوحى ، ورفيق فاخورى ، وعبد البر عونى مسعود ونيدان دنداش ، وكلهم من رجال الأدب . ورواد مقهى الهومز ، الذين يعشقون تغيير أماكن لقاءاتهم واجتماعاتهم نبذوا مقهى البن البرازيلى لعقد اجتماعاتهم فى سنة ١٩٧٢ فى مقهى « توليدو » أو بوجه أصح ، فى ركن من تلك المقهى ، تحت نفوذ أحمد دراك سباعى ، الرسام والأب الروحى لنخبة رجال الفكر . وهذا الأخير ، وقد مات منذ عهد قريب ، ورسم تلك المقهى « الجانب الأيسر من الصورة » ، ونتعرف اليوم على أربعة من كبار الرسامين : عون الدروبى ، وعبد القادر عزيز ، ورضا حسحس وعبد الله مراد .



■■ .. الفصل السادس من الرواية الخالدة « قصر الشوق » لنجيب محفوظ حيث يلتقى كمال عبد الجواد بصديقه فى مقهى حقيقى كان تحت الأرض بخان الخليلى وقد اندثر الآن.

- ٦ -

سارا جنبا الى جنب صوب درب قرمز ، متجنبين طـــريق النحاسين ، ليتفاديا من المرور بالدكان حيث يوجـد والداهما .. كمال بقامته الطويلة النحيبـــلة ، وفؤاد بقامته القصـــيرة ، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار بتناقضيهما . تساءل فؤاد بصوت هادىء :

ـ اين تذهب هذا المساء ؟

فاجابه كمال بصوته الانفعالى :

ــ قهوة احمد عبده ..

كان كمال ــ عادة يقرر ، وفؤاد يوافق رغم ما عــرف عن الأخير من رجاحة العقل ، ورغم نزوات كمال التى كانت تبدو مضحكة فى عين رفيقه ؛ مثل دعواته المتكررة له للذهاب الى جبل المقطم والقلعة والخيمية لتسريح النظر ــ على حد تعبيره ــ فى مخلفات التاريخ وعجائب الحاضر ، ولكن الحق ان العلاقة بين الصديقين لم تخل من تأثر بفارق طبقتيهما ، وكون الأول ابن صاحب الدكان والآخر ابن وكيله ، وعمق هذا التأثر ان فؤاد اعتاد فى صباه أن يؤدى ما يكلف به من شراء بعض حوائج لبيت السيد احمد ، وان يكون صنيعة لكرم أمينة التى لم تكن تضن عليه باحسن ما عندها من مأكل ــ وكثيرا ما يصادف مجيئه اوقات الغداء ــ واصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس كمال ، فربط بينهما منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعية من ناحية أخرى .. وهو وان مضى يزول بحلول شعور الصداقة محله ، الا ان اثره النفسى لم يقتلع من الأعماق ، وقد قضت ظروف بالا يجد كمال من رفيق تقريبا طوال العطلة الصيفية الا فؤاد الحمزاوى ؛ ذلك ان رفاق صباه من اهل الحى لم يواصلوا التعليم الى النهاية : منهم من توظف بالابتدائية او الكفاءة ، ومنهم من اضطر الى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل صــبى قهوة بين القصرين وصبى الكواء البلدى بخان جعفر . كان كلاهما من أقرانه فى الكتاب . وما زال ثلاثتهم يتبادلون تحية الزمالة القــديمة كلما اتفق لهم اللقاء ، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتهما لما يضفيه طلب العلم عليه من امتياز ، مشبعة من ناحيته بالودة الصــادرة عن نفس مطبوعة على التواضــع والبساطة ، أما اصدقاؤه الجدد الذين اكتسب صداقتهم فى العباسية : حسن سليم ، واسماعيل لطيف ، وحسين شداد فكانوا يقضون العطلة فى الاسكندرية وراس البر ، فلم يبق له من رفيق الا فؤاد .

بلغا مدخل قهوة احمد عبده بعد مسيرة دقائق ، فهبطا الى مستقرها الغريب فى جوف الأرض تحت حى خان الخليلى ، واتجها الى مقصورة

خالية ، وفيما هما يجلسان متقابلين حول المائدة اذ تمتم فؤاد فى شىء من الحياء :

ـ ظننتك ستذهب هذا المساء الى السينما ! .

وشى قوله برغبته فى الذهاب الى السينما ، ولعلها راودته قبل أن يذهب الى مقابلة كمال فى بيته ولكنه لم يفصح عنها ، لا لأنه لا يستطيع ان يثنى كمال عن رأى فحسب ، وانما لأن كمال هو الذى يقوم بنفقات السينما اذا ذهبا اليها معا ، فلم تواته شجاعته فى التلميح الى رغبته حتى استقر بهما المجلس بالقهوة ، حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريئة العابرة .

ـ سنذهب يوم الخميس القادم الى الكلوب المصرى لمشاهدة شارلى شابلن ، فلنلعب الآن عشرة دومينو .. "

خلعا طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثالث ، ثم نادى كمال النادل ، طلب شايا أخضر ودمينو . بدا المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة طمر تحت ركام التاريخ الا رأسه الكبير ؛ فقعد تشبث بسطح الأرض فاغرا فاه عن أنياب بارزة على هيئة مدخل ذى سلم طويل . وثمة فى الداخل صحن واسع مربع الشكل مبلط بالبلاط المعصرانى تتوسطه فسقية رصت على حافتهـا أصص القرنفل ، واحدقت بها من الجهات الأربع أرائك فرشت بالحصير المزركش والوسائد ، أما جدرانه فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة ؛ كأن الواحد منها كهف منحوت فى الحائط ، لا نافذة بها ولا باب لها ، واقتصر أثاثها على مائدة خشبية وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار فى كوة بأعلى الجدار المواجه للمدخل . وكأن القهوة اكتسبت من موقعها الغريب بعض صفاته ؛ فهى تهوم فى هدوء غير مألوف لسائر المقاهى ، وضوء غير باهر ، وجو رطيب ، وقد انطوت كل جماعة على نفسها فى مقصورتها أو فوق أريكتها ، تدخن النارجيلة وتحسو الشاى وتهيم فى دردشة لا نهاية لها ، تكاد تشملها نغمة صبا وانية متصلة الا أن تقطعها فى فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخن منهم .

كانت قهوة أحمد عبده فى نظر كمال مجتلى للمتأمل وتحفة للحالم ،

أما فؤاد — وإن لم تغب عنه طرافتها اول عهده بها — فلم يعد يجد فيها الا مجلسا كئيبا تغشاه الرطوبة والهواء الفاسد ، ولكنه لم يكن يملك الا أن يلبى كلما دعى اليها !

— اتذكر يوم رآنا أخوك سى ياسين ونحن فى مجلسنا هذا ؟

قال كمال باسما :

— نعم ، سى ياسين متسامح ولطيف ولم يشعرنى ابدا بأنه اخى الأكبر ، بيد انى رجوته يومذاك الا يشير الى مجلسنا فى البيت لا خوفا من أبى ؛ فان أحدا عندنا لا يجرؤ على مكاشفته بمثل هــذا لأمر ، ولكن اشفاقا من ازعاج والدتى ، تصور أنها ترتعب اذا علمت بترددنا على هذه القهوة أو غيرها ، وتظن أن اغلبية رواد المقاهى من الحشاشين وسيئى السمعة !

— وسى ياسين ، ألم تعلم بأنه من رواد المقاهى ؟

— اذا قلت لها هذا قالت لى : ان ياسين «كبير» ولا خوف عليه ، أما انا فصغير !، الظاهر انى ساظل معدودا فى الصغار فى بيتنا حتى يدركنى المشيب !

جاء النادل بالدومينو ، وقدحين من الشـاى على صينية فاقعة الاصفرار ، فتركها جميعا على المائدة وذهب ، تناول كمال قدحه من فوره وراح يحتسيه من قبـل أن تخف حرارته ، ينفخ السـائل ثم يتمززه ، وينفخ مرة أخرى ويمصمص شفتيه كلما لسعته الحرارة ، ولكن ذلك لا يردعه فيعاود المحاولة فى عناد وجزع كأنه محكوم عليه بالفراغ منه فى دقيقة او دقيقتين ، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتا أو يمد بصره الى لا شىء وهو مستند الى ظهر مقعده فى رزانة أكبر من سنه ، تلوح فى عينيه الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هادئة ، ولم يمد يده الى قدحه حتى كان كمال قد فرغ من مغالبة قدحه ، وعند ذلك أقبل يتحسى الشاى فى تأن مستطعما مذاقه مستلذا نكهته ، وهو يغمغم بعد كل حسوة « الله .. ما أطيبه » ، والآخر يحثه على الفراغ منه بصبر نافد كى يأخذا فى اللعب ، وهو يقول منذرا :

— لأهزمنك اليوم ، لن يحالفك الحظ ابد الدهر ..

فيبتسم فؤاد مغمغما :

ــ سنرى ...

واخذا يلعبان .

كان كمال يولى المباراة اهتماما عصبيا ؛كأنه يخوض معركة تتوقف على نتائجها حياته او كرامته ، بينا مضى فؤاد فى نظم قطعه بهدوء ومهارة فلم تفارق الابتسامة شفتيه ، أقبل الحظ ام ادبر ، هش كمال ام عبس ، وقد خرج كمال ــ كعادته ــ عن طوره ، فهتف به : « لعب سخيف ، وحظ سعيد » . فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة مهذبة لا تثير حنقا ولا توخي بتحد . طالما قال كمال لنفسه وهو يتميز غيظا « لن يبرح حظه راكبا حظى » ، ولم يكن يلقى اللعب بالتسامح الخليق باللهو والتسلية ، بل الحق لم يكن ثمة فارق ــ فى اهتمامه وحماسه ــ بين جده ولهوه . على أن تفوق فؤاد فى المدرسة لم يكن دون تفوقه فى الدومينو ؛ كان أول فرقته بينا كان هو فى الخمسة الأوائل . فهل ثمة دور للحظ فى ذلك أيضا ؟، كيف يعلل تفوق الشاب الذى ينطوى له فى الأعماق على شعور بالاستعلاء ظن انه ينبغى ان يمتد الى المواهب العقليه على السواء ؟. لم يعدم رأيا يهون به من تفوق صاحبه ، فهو يقول انه يكرس وقته كله للمذاكرة وانه لو كان عقله بالتفوق الذى يزعمون لاغنى عنه بعض هــذا الوقت ويقول أيضا : انه يتجنب الألعاب الرياضيه وقد برز هو فى أكثر من نوع منها ، ويقول اخيرا : ان فؤاد يقتصر فى مطالعاته على الكتب المدرسية ، واذا تراءى له ان يقرأ كتابا غير مدرسى فى العطلة لاحظ فى اختياره أن يكون مفيدا لدراسته اللاحقة . اما هو فلا تحد مطالعته حدود ولا توجهها منفعة ، فما وجه الغرابة فى ذلك فى ان يسبقه الشــاب فى الترتيب ؟. غير أن سخطه هــذا لم يعرض صداقتهما للوهن ؛كان يحبه ويجد فى رفقته مؤانسة ومسرة الى انه لم يضن ــ على الأقل فيما بينه وبين نفسه ــ بالاقرار بفضائله ومزاياه .

تواصــل اللعب وانتهت العشرة ــ على غير ما انذر به مطلعها ــ بانتصار كمال !، فتطلق وجهه ، وضــحك ضحكة عالية ، ثم سأل غريمه : « عشرة أخرى ؟» . ولكن فؤاد قال باسما « حسبنا اليوم

ما كان » لعله كان مل اللعب ، أو لعله اشـفق من أن تجيء نتيجة العشرة المقترحة مخيبة لآمال كمال فينقلب سروره غما ، فهز كمال رأسه كالمتعجب ، وقال :

ــ انك كالسمك من ذوى الدم البارد !

ثم بلهجة المنتقد ، وهو يدلك أرنبة أنفه العظيم بابهامه وسبابته :

ــ انى أعجب لك ، اذا غلبت لم تابه للأخذ بثارك ، وتحب سعد ولكنك تنكص عن الاشتراك فى مظاهرة اريد بها تحيته يوم ولى الوزارة ، وتتبارك بسيدنا الحسين ولكن لم تهتز لك شعرة يوم ثبت لنا من تاريخه ان جثمانه غير ثاو فى ضريحه القريب ! انى أعجب لك ..

شد ما يحنقه البرود ، ان ما يسمونه « العقل » لا يطيقه ، وكأنه يحب الجنون ويهيم به . انه يذكر يوم قيل لهما فى المدرسة : « ان ضريح الحسين رمز ولا شىء غير ذلك » . عادا يومذاك معا وفؤاده يردد ما قاله مدرس التاريخ الاسلامى ، وكان كمال يتساءل منزعجا : كيف أوتى صاحبه تلك القوة التى تحمل بها الخبر كأنه شأن لا يعنيه ؟!. أما هو فلم يستسلم لتفكير ، لم يستطع ان يفكر البتة ، وكيف لثائر ان يفكر ؟، سار كالمترنح من هول الطعنة التى نفذت الى صميم قلبه ، كان يبكى خيالا نضب وحلما تبدد ، لم يعد الحسين بجارهم ، بل لم يكن بجارهم يوما من الايام ، اين ذهبت القبلات التى طبعت على باب الضريح فى صدق وحرارة ؟ ، اين يذهب الاعتزاز بالقرب والادلال بالجوار ؟، لا شىء من هذا كله ، لم يبق الا رمز فى الجامع ووحشة وخيبة فى القلب ، وبكى ليلتذاك حتى بلل وسادته ، تلك كانت الصدمة التى لم تحرك فى صديقه العاقل الا لسانه حين علق عليها مرددا اقوال مدرس التاريخ ، الا ما ابشع العقل !

ــ هل علم والدك برغبتك فى دخول مدرسة المعلمين ؟

.. قال كمال بحدة جاءت منبزة عن ضيقه ببرود صاحبه وألمه المتخلف عن مناقشة أبيه معا :

ــ نعم ! ..

ــ وماذا قال لك ؟

فقال يروح عن صدره بمهاجمة محدثه عن طريق غير مباشر :

ـ واأسفاه .. ان والدى كأكثر الناس ـ من يهيمون بالمظاهر الزائفة ، الوظيفة .. النيابة .. القضاء .. هذا كل ما يهمه . لم أدر كيف اقنعه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقة بالنشدان فى هذه الحياة ! غير انه ترك لى حرية التصرف ..

جعلت أصابع فؤاد تعبث بقطعة من الدومينو ، وهو يقول فى حذر واشفاق :

ـ قيم جليلة بلا شك ، ولكن أين البيئة التى ترفعها الى المنزلة اللائقة بها ؟

ـ لا يمكن أن أنبذ عقيدة سامية لا لشىء الا ان من حولى لايؤمنون بها ...

فعاد فؤاد يقول فى هدوء مسكن :

ـ روح جديرة بالاعجاب !.. ولكن الا يحسن بك أن تقدر مستقبلك فى ضوء الواقع ؟

فتساءل كمال بازدراء :

ـ ترى لو كان زعيمنا قد أخذ بهذه النصيحة ، اكان يفكر جديا فى أن يذهب الى دار الحماية للمطالبة بالاستقلال ؟

ابتسم فؤاد ابتسامة كأنها تقول « رغم ما فى حجتك من وجاهة فهى لا تصلح قاعدة عامة فى الحياة » ، ثم قال :

ـ ادخل الحقوق حتى تضمن عملا محترما ، ولك بعد ذلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء !

فقال كمال محتدا :

ـ لم يجعل الله لامرىء من قلبين فى جوفه ، ثم دعنى احتج على ربطك العمل المحترم بالحقوق ! كأن التدريس ليس عملا محترما !!

فبادر فؤاد يقول بتوكيد يدفع به عن نفسه الشبهة :

ـ لم أقصد هذا مطلقا ، ومنذا الذى يقول ان حفظ العلم ونشره ليس عملا محترما ؟.. لعلى كنت أردد رأى النـاس وانا لا ادرى ، والناس كما أشرت الى شىء من هذا تبهرهم أضواء القوة والنفوذ !

فهز كمال منكبيه لستهانة ، وقال باصرار :
ـ أن حياة تكرس للفكر لهى أجل حياة ..

هز فؤاد راسه كالموافق دون ان ينبس ، وظل لائذا بالصمت حتى ساله كمال :
ـ ما الذى دعاك الى اختيار الحقوق ؟

ففكر قليلا ثم اجابه :
ـ لم أكن مثلك واقعا فى غرام الفكر ، فكان على أن اختار دراسة عالية على ضوء المستقبل وحده ، فاخترت الحقوق ..

اليس هذا هو صوت العقل ؟. بلى انه هو ، شد ما يثير حنقه وتمرده ، أليس من الظلم أن تمضى العطلة الطويلة وهو حبيس هذا الحى ولا رفيق له الا هذا «العاقل» ؟، ثمة حياة أخرى تعارض حياة الحى العتيق معارضة الضد للضد ، وثمة رفاق آخرون يخالفون فؤاد مخالفة النقيض للنقيض ، الى تلك الحياة والى أولئك الرفاق تهفو نفسه ، الى العباسية ، الى الطراز الطريف من الشباب ، وقبل كل شىء الى الأناقة الرفيعة والنغمة الباريسية والحلم البديع .. الى معبودته ، آه .. ان نفسه تنازعه الى البيت ، الى حجرته كى يخلو الى نفسه فيدعو كراسته ، يراجع تاريخا أو يستعيد ذكرى أو يسجل نفثة ، الم يئن له ان يقوض هذا المجلس ويذهب ؟
ـ قابلت أناسا فسألونى عنك .. ؟

تساءل كمال ، وهو ينزع نفسه بمشقة من تيار الوجد :
ـ من ؟
فؤاد ضاحكا :
ـ قمر ونرجس !
قمر ونرجس ابنتا ابو سريع صاحب المقلى ، قبو قرمز ، الأزقة المظلمة بعد الغروب ، العبث المشوب بالسذاجة الدنسة أو الدنس الساذج ، المراهقة المحمومة ، الا يذكر هذا كله ، ما لشفتيه تتقلصان تقززا ؟، ذلك تاريخ قديم نسبيا ، قبل حلول الروح القدس ، لا يذكره

الا ويثور قلبه سخطا والما وخجلا كما ينبغى لقلب اترع بشراب الحب الطهور .

ــ كيف قابلتهما ؟

ــ فى زحمــة مولد الحســين ، فسرت الى جانبهمــا دون تردد او ارتباك كأننا اسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولد !

ــ يا لك من جرىء !

ــ احيانا ، سلمت فسلمتا ، وتحادثنا مليا ، ثم سألتنى قمر عنك!

تورد وجهه قليلا ، وهو يسأل :

ــ ثم ؟

ــ اتفقنا مبدئيا على أن أخبرك ، ثم نتقابل جميعا !

هز كمال راسه فى نفور ، ثم قال باقتضاب :

ــ كلا ...

فقال فؤاد فى دهش :

ــ كلا ؟ ، ظننتك ترحب بلقــاء تحت القبو او فى فنــاء البيت المهجور . نضج جسماهما ، وعما قليل تصيران امرأتين بكل معنى الكلمة ، وعلى فكرة كانت قمر مرتدية الملاءة اللف ولكنها كانت سافرة فقلت لها ضاحكا : لو لبست البرقع ما تجرأت على محادثتك !

قال كمال باصرار :

ــ كلا ..

ــ لم ؟

ــ لم اعد اطيق القذارة !

ثم بحدة نمت عن ألم دفين :

ــ لا أستطيع أن ألقى الله فى صلاتى وثيابى الداخلية ملوثة !

فقال فؤاد بسذاجة :

ــ تطهر واغتسل قبل الصلاة !

فقال كمال ، وهو يهز رأسه للاستعارة الضائعة :

ــ ان الماء لا يطهر من الدنس ..

ذلك الصراع القديم ، كان يمضى الى لقاء قمر مضطربا بالشهوة

والفلق ويعود بضمير معذب وقلب باك ، ثم عقب الصلاة يستغفر استغفارا حارا طويلا ، لكنه يمضي مرة اخرى مغلوبا على أمره ثم يعود بالعذاب ليستغفر من جديد .. يا لها من أيام نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب ، ثم انبثق النور ، هنالك وسعه أن يحب وان يصلى معا ، كيف لا؟! والحب من منبع الدين يقطر صافيا !. قال فؤاد في شيء من الحسرة :

ـ انقطعت علاقتي بنرجس منذ منعت من اللعب فى الحارة !

فسأله كمال باهتمام :

ـ الم تكن ـ وانت المؤمن ـ تتعذب بتلك العلاقة ؟

فقال فؤاد ، وهو يغض البصر حياء :

ـ هنالك امور ما منها بد ..

ثم متسائلا ، وكأنه يدارى حياءه :

ـ أترفض حقا انتهاز هذه الفرصة ؟

ـ بكل تأكيد !!

ـ لوجه الدين وحده ؟

ـ أليس هذا كافيا ؟

ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة ، وقال :

ـ كم تحمل نفسك ما لا يحتمل ...

فقال كمال باصرار :

ـ انى لكذلك وما ينبغي لى أن أكون غير ذلك ..

وتبادلا نظرة طويلة ، أفصحت في عيني كمال عن الاصرار والتحدى ، فانعكست في عيني فؤاد مهادنة وابتسامة كأشعة الشمس الجهنمية التى تنعكس على سطح الماء لألاء ضاحكا ، ثم واصل كمال حديثه :

ـ انى أرى الشهوة غريزة حقيرة ، وامقت فكرة الاستسلام لها ، لعلها لم تخلق فينا الا كى تلهمنا الشعور بالمقاومة والتسامى حتى نعلو عن جدارة الى مرتبة الانسانية الحقة ، اما ان اكون انسانا واما ان اكون حيوانا ..

فتريث فؤاد قليلا ، ثم قال بهدوء :

ـ أظن انها ليست شرا خالصا ، فهى الدافع الى الزواج ـ فالذرية !!

خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجر لفؤاد فى خاطر : اهـذا هو الزواج فى النهاية ؟ ، لكنه لم يكن يجهل هذه الحقيقة فى جملتها وان كان فى حيرة لا يدرى كيف يوفق الناس بين الحب والزواج ، انها مشكلة لم يرتطم بها فى حبه ؛ لأن الزواج بدا دائما ـ ولأكثر من سبب ـ فوق مرتقى مانيه ـ ولكن ذلك لم يمنع من قيامها مشكلة تتطلب الحل ، ماكان يتصور ان يكون اتصال سعيد بينه وبين معبودته الا عن طريق العطف الروحى من ناحيتها والتطلع الهيمان من ناحيته ، طريق بالعبادة أشبه ، بل هو العبادة نفسها ، فأى شأن للزواج فى هذا ؟

ـ الذين يحبون حقا لا يتزوجون .

تساءل فؤاد بدهش :

ـ ماذا قلت ؟

فطن حتى قبل تساؤل فؤاد الى ان لسانه خان ارادته . فبدا عليه الارتباك لحظة حرجة ، وراح يتذكر آخر اقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتى اهتدى بشىء من الجهد ـ على حداثة العهد بسماعها ـ الى كلماته عن الزواج والذرية ، فصمم على مداراة هفوته وعلى تصحيح معناها ما امكن ، فقال :

ـ الذين يحبون ما فوق الحياة لا يتزوجون ، هذا ما عنيت ..

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعله كان يقاوم ضحكة ، غير ان عينيه العميقتين لم تنما عما وراءهما ، واكتفى بأن قال :

ـ هذه أمور خطيرة ، والحديث عنها الآن سابق لأوانه ، فلندعها مرهونة بأوقاتها ..

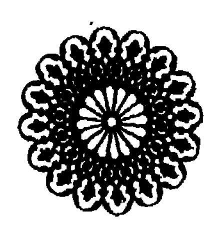
فرفع كمال منكبيه باستهانة وثقة ، وقال :

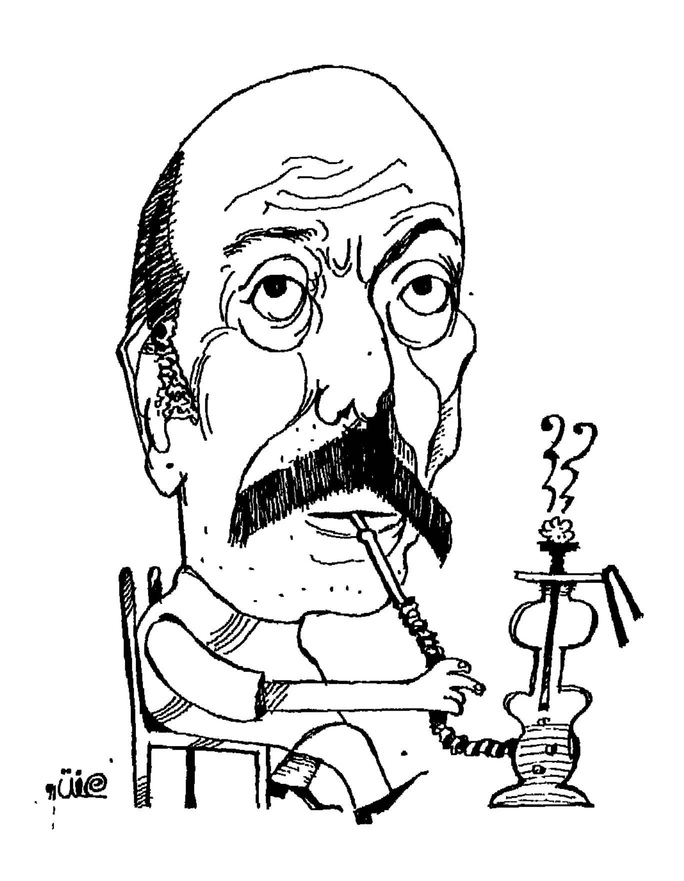
ـ فلندعها ولننتظر ..

فؤاد فى واد وهو فى واد ، على ذلك فهما صديقان ، لايسعه ان ينكر ان الخلاف فى نفسه يجذبه اليه على ما فى ذلك من جهد تعانيه اعصابه المرة بعد المرة ، ألم يئن له أن يعود الى البيت ؟ ، الوحدة ومناجاة النفس

تتجاذبانه . الكراسة النائمة فى درج مكتبه تهيج جيشان صدره . لابد للمكدود فى مكابد الواقع من انتجاع بعض الراحة فى الانطواء . .

ـ آن لنا أن نعود . . .





● الولد الشقى فى القهوة ●

■■ فى مذكرات الولد الشقى » لمحمود السعدنى يذهب مع صديقه طوغان إلى المقهى لأول مرة ويحدث لهما موقف محرج .. ما هو ؟



وكان الجارحى بائسا غاية البؤس . ذليلا غاية الذل ، حتى عندما يتكلم بحماس او يفخر . . فإن صوته كان يخرج خفيضا منحنيا كأنه يتسول حسنة لوجه الله ! ولم يكن الجارحى يدخن سجاير ولكن نحن الذين علمناه ! وفى البدء كان عندما يشفط نفسا عميقا يقضى وقتا طويلا يكح حتى تدمع عيناه ويبصق حتى تبرز امعاؤه . . ورغم صوته القبيح المسلوخ فقد كان يحب الغناء ، وكان يغنى مواويل كلها ضعف وحزن وغلب واستكانة ، وكان الاحزان التى تجثم فوق صدره أعلى من هرم خوفو وأثقل من جبل المقطم .

كان كل شيء في البدء - أصبحت الجيزة - ظلاما في ظلام ! الحرب قامت وكما ياجدع وشارع الترماى يشغى بالعساكر الانجليز والافريكان والهنود واجناس شتى لم نسمع بها ولم نسمع عنها من قبل . والعساكر معهم سجاير ولديهم بسكويت وفى جيوبهم مطاوى ، وهم دائما سكرانين ودائما مترنحين ومحافظهم متخمة دائما بالنقود .

وهم يشترون الشيء الذى يساوى قرشا ويدفعون عشرة ، وأحيانا يشترون ولا يدفعون شيئا . . وأحيانا يتفاهمون بالذوق ، وأحيانا يتفاهمون بالمطاوى . . ولاننا عيال ، ولاننا نشرب سجاير ، ولاننا فى منتهى الشقاوة ، فقد انطلقت صرخة من غزالى الى شارع الترماى ، وهربنا جميعا من حوارى الجيزة الى الميدان نتفرج على العساكر ونشاغلهم ونعاكسهم ، ثم تطورت المسائل اكثر فأصبحنا نخطف برانيطهم . . وكنا كلما خطفنا خطفة او هبشنا هبشة ، نعود جريا الى المخبأ نسهر مع الجارحى نشعل سجاير ونحكى قصصا ونضحك من الاعماق .

وكان الجارحى هو غفير المخبأ . . فى الثلاثين من عمره ولكنه لسوء التغذية كان يبدو فى العشرين . . أقرع الرأس أعمش العينين ، اصفر الجلد كأنه صينى أصيل !

وكان قبيح الصوت الى درجة تنفرك من جميع الاصوات . . صوت مبحوح مكتوم متحشرج ، وكأن صاحبه يموت !

وكان عندما يتكلم أحدق فى وجهه طويلا . فقد كنت أشك فى أنه يتكلم من فمه ، وكنت أعتقد أحيانا أنه يتكلم من كعوب رجليه . . ولم يكن الجارحى عسكرى فى الجيش العامل ولكنه كان عسكرى فى جيش انشىء خصيصا من أجل الحرب ثم صدر قرار بحله بعد ذلك . . وكان اسمه الجيش المرابط .

ولقد أنشىء هذا الجيش لحراسة المخابىء . ومنشآت الانجليز ومخازنهم .
وكان العسكرى منهم يتقاضى فى الشهر بضعة قروش . ويرتدى زيا مضحكا
للغاية وكأنه اراجوز فى مولد الامام الشافعى ..

وكان الجارحى بائسا غاية البؤس ذليلا غاية الذل .. حتى عندما يتكلم بحماس او يفخر .. فإن صوته كان يخرج خفيضا منحنيا كأنه يتسول حسنة لوجه الله ! ولم يكن الجارحى يدخن سجاير ولكن نحن الذين علمناه ! وفى البدء كان عندما يشفط نفسا عميقا يقضى وقتا طويلا يكح حتى تدمع عيناه ويبصق حتى تبرز أمعاؤه .. ثم يجلس بعد ذلك مهموما مطرق الرأس وكأنه فقد عزيزا لديه .. ورغم صوته القبيح المسلوخ فقد كان يحب الغناء .. كان يغنى مواويل كلها ضعف واستكانة وغلب وحزن .. وكأن الاحزان التى تجثم فوق صدره أعلى من هرم خوفو واثقل من جبل المقطم .

وذات مساء كان معنا قرش صاغ واحد .. فاتفقنا على الجلوس فى المقهى وان نطلب براد شاى بقرش صاغ وان نتقاسمه جميعا وكأنه زجاجة ويسكى هيج .. وجلسنا على المقهى فعلا وطلبنا براد شاى فقط لاغير .. وجلسنا نشرب وكل منا يضع ساقا على ساق .. ومر من امامنا تلميذ معنا فى المدرسة ، وكان مهذبا ومؤدبا وغاية فى الاناقة والكمال .. وحيانا من بعيد كما يفعل الجنتلمان .. وكرجالة ارانات رددنا التحية بأحسن منها ، واتفضل ، ومتشكر . وحلفان بأغلظ الايمان .. ومسك فى الهدوم وانتهت المعركة بالجلوس على المقهى معنا .. واضطررنا الى ان نطلب واحد شاى للضيف العزيز .. وهكذا وقعنا فى المشكلة .. علينا للجرسون قرشين وليس معنا الا قرش واحد . واقترح عبدالسلام ان نعتذر للجرسون عن عدم وجود نقود معنا . وان ندفع له القرش الوحيد ونؤجل دفع القرش الآخر الى اليوم التالى . ولكن هذا الاقتراح رفضناه بالاجماع .. فمن يدرى ؟ ربما رفض الجرسون اللعين قبول هذا العرض وعندئذ قد ينهال علينا ضربا ولطشا ولكما .. وقد نخرج من المقهى بعاهة مستديمة بسبب الشهامة واكرام الضيف .

واقترح طوغان ان نتسلل من المقهى هاربين فرادى واحدا وراء الاخر .. واقترح ايضا ان يضرب لنا المثل ويكون اول المتسللين !! وفعلا تسلل طوغان من المقهى ، وتسلل عبدالسلام بعده ، وصلاح كرنك بعده .. وبقى غزالى وسعد كرنك والعبد لله . وكانت الخطة ان اتسلل انا بعد ذلك ثم سعد ثم يبقى غزالى وحده فى النهاية حتى يتحين فرصة مناسبة فيهرب بجلده من المقهى الى المخبأ .

ولكن غزالى رأى تغيير الخطة فجأة .. فهادمنا متهرب .. فما الذى يمنع من أن نطلب مزيدا من الشاى ومزيدا من الدخان المعسل .. واذا غامرت فى شرف

مروم ، فلا تقنع بمادون النجوم . . على رأى المتنبى . وانجعصنا فعلا ، وصفقنا للجرسون ، وطلبنا براد شاى مرة أخرى وكرسى دخان معسل . . وجلسنا نشرب وندخن ونبسط آخر انبساط ، فلما انتهنا اقترح غزالى مرة اخرى ان نهرب ومعنا الجوزة .. فهى لابد ستنفعنا على أية حال !

وفعلا بدأنا تنفيذ الخطة . . قمت انا من مكانى وتمشيت افرنجى نحو حلق المقهى والقيت نظرة على الجرسون الذى كان مشغولا عند النصبة . . فغمزت لغزالى ، فهب غزالى ومعه الجوزة هاربا فى اتجاه المخبأ وسعد كرنك يتبعه . . وانطلقت أنا فى الاتجاه الآخر .

وبعد دقائق كنا جميعا فوق المخبأ ومعنا الجوزة والجارحى . . وراح الجارحى يتفرج على الجوزة كأنها عجبة ، يتحسسها بيده كأنها قطعة حرير سكروته . . وبدت الدهشة على وجهه عندما أشعلنا فحما ، وحشونا الجوزة بالمعسل ورحنا نشد انفاسا عميقة حتى انقطعت أنفاسنا . . وعندما انتصف الليل قمنا الى بيوتنا . . واقترح سعد كرنك ان نترك الجوزة امانة لدى الجارحى حتى اليوم التالى . .

وكان سعد كرنك صبيا ريفيا من شبين الكوم ، وكان شديد النحافة . . دائم المرض ، ولكنه كان حادا كالسيف ، يستطيع ان يهزم رجلا فى الثلاثين ، وعندما وفد الى الجيزة اول مرة كان اسمه سعد زغلول الارناؤطى . . وكان لعبدالوهاب اغنية حديثة اسمها الكرنك . . وكان سعد شغوفا به يحب سماعها ، ولكنه كان ينطقها كرنك بفتح الراء بدل تسكينها . . فأطلقت انا عليه هذا اللقب وأصبح شهيرا به حتى أصبح رجلا ، بل أصبح علما عليه حتى مات منتحرا !

تركنا الجوزة عند الجارحى وانصرفنا ، وعندما عدنا فى الصباح وجدنا الجوزة تحطمت الى ألف قطعة ، والجارحى مريض اصفر الوجه كأنه جثة يربط رأسه بمنديل اصفر باهت ويشهق كأنه يعانى سكرات الموت ! وعندما سألناه عما دهاه أشار فى أسى شديد الى حطام الجوزة وهز رأسه ولم يتكلم . . الا بعد ذلك بأيام . .

الجارحى الغلبان الصدمان بعد أن تركناه مع الجوزة وانصرفنا ، فكر فى ان يتسجم وحده ، ولم يكن الجارحى قد استعمل الجوزة من قبل ، وكل الذى رآه هو قطع فحم مشتعلة ومجرد شفط انفاس من الغابة وكان الله يحب المحسنين . . وفعلا اشعل الجارحى فحما وراح يشفط بعمق ويشفط بنهم . . وشعر الجارحى فجأة بالرهقان وشعر بالدوخة ، وأحس انه يموت ، فنهض ثائرا وحطم الجوزة ثم نام على الارض مريضا يعانى سبعة أيام !!

وفى خلال ايام مرضه كان حريصا على أن يحضر مجلسنا فوق المخبأ . وكان

يفرش شوالا على الارض وينام بملابسه « الرسمية » ينصت الينا أحيانا ، ويغنى أحيانا موالا كان يردده بمناسبة وبلا مناسبة .

أنا أصلى مش بطال لكين الأهل تعبونى ..
فى الوش حلوين ومن ورا ضهرى تعبونى ..
أنا قلت أسيب الوطن للكل ، وعملت جسمى معدية لدوس الكل
جيت أريح الكل لقيت الكل تعبونى !

وكان بين كل مقطع ومقطع يصيح من شدة الاعجاب ، الله ، تانى والنبى ياجارحى ياحلاوة .. فاذا انتهى من الغناء هز رأسه اعجابا ومصمص شفتيه من شدة الانسجام !

وشفى الجارحى من مرضه بعد أسبوع .. واستطعنا أن نجرجره معنا إلى أرض ماتوسيان .. فقد أرسلت لنا فرقة البحر الاعظم باصة لنلعب معها على دستة كازوزة .. وفى يوم اللعب اكتشفنا ان لاعبا منا قد اختفى . وأقنعنا الجارحى أن يذهب معنا ويلعب لنا حارس مرمى .. وشرحنا له الامر هناك .. ووقف الجارحى حارس مرمى .. ولعبت أنا فى الجناح الايمن ، ودار اللعب بيننا وبين البحر الاعظم .. فريق فؤاد صدقى الشهير .. وجون واحد لم يدخل فى الجارحى ، أخذ اللعب جدا ، ورمى جثته على أقدام اللعيبة .. وانبطح رأسه وتحطمت ضلوعه وتسلخت ذراعاه .. ونزفت الدماء من أنفه .

وانتهت المباراة ليلتها بالتعادل .. لم نخسر ولم نكسب .. وقررنا الاحتفال بالجارحى .. وعندما سألناه عن الهدية التى يرغب فيها قال ولعابه يسيل .

ـ سانكويتش كفته .

وكان الجارحى يقصد ساندويتش ، واشترينا له ساندويتش كفته بقرش صاغ ، وجلسنا على سور نفق الهرم نتفرج على الجارحى وهو يقضم الساندويتش بشراهة كأنه يأكل آخر زاده .

وفجأة .. مر من تحت النفق طابور عساكر افريكان من شرق أفريقيا : مروا من تحت النفق فى طريقهم الى الهرم سيرا على الاقدام . وكانوا يسيرون واحدا وراء الاخر رغم اتساع الشارع وكأنهم يسيرون فى درب ضيق داخل غابة سوداء ..

وكان الطابور أثناء رحلته الطويلة نحو الهرم يتفاهم بطريقة مضحكة . كان الرجل الذى يقود الطابور يلقى سؤالا فيتلقفه الذى خلفه ويردده .. فينقله الذى خلفه ويردده حتى ينتهى السؤال الى الرجل الاخير ، فيجيب اذا كان لديه جواب .. ثم يعود الجواب من رجل الى رجل اخر حتى يصل الى الرجل الاول .

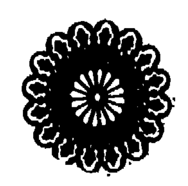
وفى رحلة مثل هذه من الجيزة الى الهرم كان الطابور البائس الغلبان يتبادل ثلاثة أسئلة وثلاثة اجوبة على الاكثر.

المهم أننا لمحنا الطابور يسير من تحت النفق فصحنا نحييه .. ورد الطابور التحية .. ثم بصق غزالى على الطابور ، فبصق الطابور نحونا .. وتطورت المسألة الى خناقة والطابور البائس تحت .. ونحن فوق سور النفق .. وأرض ماتوسيان واسعة ، وفى الارض طوب كثير ما أحلاه فى معركة مثل هذه .. وانحنينا على الارض نجمع طوبا .. وهات ياتحديف على طابور الافريكان ..

وتعالى الصياح وتصاعدت الصرخات ، وتفرق الطابور مذعورا وحرضنا هذا المنظر على الاستمرار فى المعركة .. وسالت دماء الافريكان ، وجلجلت ضحكاتنا واندمج الجارحى معنا .. واشترك فى المعركة ، واستطاع بعض الافريكان فى النهاية أن يهربوا من الحصار .. واتجهوا الى مقدمة النفق من ناحية الجيزة ليقوموا بعملية التفاف حولنا ..

ولكن غزالى لحسن الحظ كشف اللعبة ، فصاح صيحة مدوية كقائد مسئول .. اهربوا .. وأخذنا ديلنا فى اسناننا وهات ياجرى نحو قلب الجيزة .. وعندما وصلنا الى المخبأ ، تفقدنا الجارحى فلم نجده .. كانت هذه هى المرة الأولى التى يغادر فيها المخبأ الى مكان اخر .. ومن يدرى ربما وقع اسيرا فى قبضة الافريكان ..

ومن جديد . عدنا نزحف الى نفق الهرم نستطلع الامر !





المقهى وصاحبه ...

.. اختلف عامة الناس والمتخصصون فى عمره ، قدره البعض بمائتين ، وزاد آخرون قرنا كاملا ، واثبت اجانب انه كان قائما زمن الحملة الفرنسية ، ثمة لوحة تصور جانبا منه فى كتاب وصف مصر ، الذى اعده علماء الحملة عن البلاد وما تحوى ، وان بونابرت زاره ، واحتسى مشروب الحلبة وابدى اعجابه بنكهته .

فيما بعد اشتهر المقهى بالشاى الاخضر المعطر بالنعناع ، وهذا من عناصر الحنين القوية عند صاحبنا خلال اغترابه ، مهما اختلفت المدة ، طالت او قصرت ، بمجرد عودته ، يمضى الى ركنه الذى اعتاد الجلوس فيه ، يبادر الى احتساء كوب أو اثنين ، ليس الشاى مقصودا لذاته ، انما سعيا الى ما يثيره التوحد من استدعاء للحظات مندثرة ، واخرى لا تزال فى رحم الغيب ، تهدئة لاتقاد الجذوة ، ودرءا لعصف الحنين ، كثيرا ما ردد : انه مأوى وليس مقهى . موقعه فى الحى القديم ، القادمون الى اضرحة الاولياء الصالحين يقصدونه ، خاصة يوم الجمعة ، منهم أهل الريف ، كذا طلبة العلم وشيوخهم ، هذا اليوم بالذات يصعب وجود مقعد خال حتى ما قبل المغيب .

ازمنة شتى تتابعت ، كل منها ترك بقايا او اودع آثارا علقت بالجدران ، أو رصت فوق الأرفف ، او تدلت من السقف ، فمن ذلك المرايا الضخمة ، بلجيكية المصدر ، ذات الأطر المدججة بزخارف اغريقية ، اهداها امير من العائلة المالكة فى نهاية القرن ، اعتاد تدخين النرجيلة فى مقصورة خصصت له ، نهاية الممر ، قرب الزهور الصناعية التى اطلعت عليها . وتوقفت امامها الامبراطورة أوجينى ، عندما ثقل جسد الامير . وقلت حركته ، ذهب المعلم الكبير الى قصره المطل على النيل لاعدادها له ، يوميا يجىء خادم حبشى يقود عربة ذات جوادين أصيلين ، مرة فى الصباح ، ومرة قبل العشاء ، يصحب المعلم الذى يمضى مباشرة الى الحجرة الخاصة ، حيث يوقد الجمرات ، يضبط المتنباك ، ثم يشعل الدخان بانفاسه القوية حتى تسلس ولا ترهق الامير ، كانا فى البداية يتبادلان كلمات قليلة ، ثم طالت خلوتهما ،

وحدثه الأمير عن أدق شئونه ، وأفضى بأسرار جمة ، يقال ان المعلم الكبير كان يخشى مجرد التفكير فيها ، فما البال بترديدها او الافصاح منها ، حتى بعد دخول الامير مرض المـوت ، ورحيله ، يتعلق الأمر بدقائق ، بعضها يخص أميرات من العائلة ، لم يفض قط .

فى المقهى أوان خزفية من صنع تركيا ، وبلدان أواسط آسيا ، وسيوف أغمدت منذ ازمنة طويلة ، وقوارير عطور نادرة من زجاج ملون . وسجادة صغيرة من حرير ، عليها رسم مشكاة تطل منها زهور، صنعت فى هيرات ، أهداها ملك الأفغان المنفى قبل عودته الى بلاده منتصرا ، علقت الى الجدار بحيث تعلو المكان الذى اعتاد صاحب المقهى الجلوس فيه ، ولم يغيره منـذ ستين سـنة ، وقطع خشب مخروط توقف صنعها لبطلان اليد العاملة التى كانت تبدعها وتسويها، فمن ذلك دولاب صغير يعلق الى الجدار ، تتخلله زوايا صغيرة من العاج ، وأرفف من الخشب فمصنوع من شجر ذى رائحة لا تنفذ ، قوية ، تعبق فراغ المقهى كله خاصـة فى أصباح الايام الشتوية المشمسة ، تنبعث هادئة ، راسخة ، تطغى على سائر الروائح ، حتى التمباك المحترق على مهل بجمرات الفحم ، تبعث راحـة وترسـل خدرا ، العجيب ان هذه الرائحة اختفت تماما من الخشب بعد رحيل ابن المعلم الكبير ، آخر ملاك المقهى ، ولم يفسر أحد سر ذلك .

احتوى المقهى ايضا على أوان نحاسية منقوشة بالزخرف الدقيق، بعضها صنع لاحتواء الماء ، او لترص فوقه الاكواب والأوانى ، ومن ذلك صينية منقوشة ، زخارفها مورقة ، متفرعة ، متداخلة ، تتغير مع حركة الناظر ، فيصبح المثلث دائرة ، والخـط المجرد مورقا ، والنجمة هلالا ، حدث الزخارف بخيوط الفضة الممسوسة بالذهب ، وعدها البعض من العجائب ، هذه الصينية آخر ما أنجزه واحد من قدامى الصناع اشتهر امره ، لم يكن يعمل الا قبل غروب الشمس بساعتين ، وبمجرد غوص قرصها عند الافق يتوقف أيا كان الوضع الذى يعمل فيه ، حتى اعتبر بعض معارفه والمحيطين به توقف يده من طرق المسطح النحاسى او المعدنى علامة على تمام الغروب ، خاصة فى رمضان ، لم يكن يعمل وفقا لتصميمات مسبقة ، انما كان ينحنى محملقا فى الفراغ ثم يبدأ النقش ، مستخدما أدوات معدنية ، مدببة ، بعضها غليظ كالطارق ، وآخر نحيل كالابر ، من بين أصابعه تتخلق النقوش ، لا يجور شكل على آخر ، لم تخرج من بين يديه قطعتان

متشابهتان ، قلده بعض صغار الصناع ونقلوا عنه ، لكنه لم ينسخ ذاته قط ، مات عن اربع وثمانين سنة . مال رأسه فوق هذه الصينية التى علقت زمنا طويلا فى صدارة المقصورة الرئيسية بالمقهى ، بعد انتهائه من حفر آخر نقطة اغلقت الدائرة الوسطى التى تتفرع منها الخطوط والاشكال . ظنه البعض نائما ، وعندما حددوه وجدوا صعوبة فى فك اصابعه عن المطرقة الصغيرة والازميل ، حتى انه دفن بهما .

احتوى المقهى على ستائر نادرة من الخرز الملون ، صغير الحجم كحبات الذرة ، تتخلله فصوص من مرجان البحر الهندى الأعظم ، تنسدل على فراغات المقصورات المتجاورة على جانبى الممر الرئيسى ، فتحجب وتشى فى عين اللحظة ، هذه الستائر أهداها طالب علم من جزر القمر درس في الازهر سبع سنوات قبل عودته إلى بلاده ، واعتاد القدوم بعد صلاة الفجر مباشرة والجلوس صامتا مقدار ساعة داخل المقاصير ، صفت نراجيل عتيقة ، متنوعة الطرز ، أما التى اعتز بها صاحب المقهى ، وحنا عليها ، واكثر من عنايته بها ، وترفق بوضعها ، فكانت تخص في الأصل السلطان احمد العثماني ، خاتمة وطرة توقيعه على زجاجها الازرق ، الشفاف ، الرقيق ، كيف وجدت طريقها الى هنا ؟ . هذا ما لا يعرفه أحد .

حدثنى اقدم العمار — رحمه الله رحمة واسعة ، اذ كان غندورا ، طيب المظهر ، رائق المزاج ، قوى الاهتمام بزبائن المقهى ، قال ان الحاج اذا طرب او انتشى او مر بلحظات صفو ، يأمر باعداد هذه النرجيلة ، يضعها أمامه ، يتأمل صور السلطان المرسومة على الوعاء الزجاجى ، وتوقيعه ، يهز رأسه هزتين قصيرتين موجزتين متتابعتين ، يعرف الأقربون انه يمر بذرا صفوه وخلوته مع ذاته ، ودنوه الأقصى من لب راحته الانسانية .

اغرب ما يروى عنه ، ما يتعلق بغرفة الزهور والامبراطورة اوجينى ، فى نهاية الممر حجرة جدارها زجاجي . الناظر داخلها يرى ورود الدنيا كلها ، المعروفة فى مصر ، وفى اقصى المعمورة . عندما جاءت الامبراطورة اثناء احتفالات افتتاح قناة السويس ، زارت المنطقة القديمة واثناء تفقدها المآذن العتيقة والجدران الزمنية للمبانى القادمة من عصور بعيدة ، توعكت قليلا ، وشحب لونها ، رفعت يدها الى جبهتها ، لم يكن هناك مكان مناسب الا المقهى القريب . طبعا سبقها رجال القصر لتنظيفه وتهيئته والتأكد من ابتعاد الشحاذين والدجالين

والفضوليين ، اقترح احدهم على الحاج أحضار اطقم الشاى والقهوة من القصر ، كذا الأكواب الزجاجية الملونة التى لا تخرج من الخزائن الا فى المناسبات الكبرى ، مثل مولد النبي ، وعيد الجلوس ، او الحفلات التى تقام للملوك . لكنه ابى ، وقال صراحة أن بعض ما عنده لا يوجد فى القصر .

وقف عند رأس الطريق القصير المؤدى من الميدان الى المقهى ، وبالتحديد امام المطعم الايرانى الذى اغلق بسرعة وسدت منافذه لدواع امنية وخوفا من نفور الامبراطورية او غثيانها اذا استنشقت روائح التقلية والمرق ، ربما ازعجها ما لم تعتد عليه ، كان المعلم ، شابا فى العشرين وقتئذ ، وقيل فى الثامنة عشر ، عنفوان فتوته ، ومرحلة تاججه ، كان طويلا ، له مهابة ، غليظ الرقبة ، ضخم الشارب ، ورث عن والده حبه وشرهه للأكل والنكاح ، فى هذه السن المبكرة كان يلقب بالألفى ، لانه ضاجع منذ بلوغه الف امرأة ، زاد عليهن فيما بعد ، لكنه ظل يعرف بذلك ، وامر فحولته معروف ، وله اطوار غريبة تروى امرها شائع .

لحظة لقائه بها بدا ثابتا ، راسخا ، قسماتها هى التى اختلجت مسفرة عن رغبة أنثى ، وعندما مد ذراعه لتتكىء عليها طبقا لنصيحة باشا كبير سبق الركب واطلعه على السلوك الواجب اتباعه وحذره مغبة التقصير . برغم ذلك عند وصولهما الى المدخل انفصل عنها ، فرد يده داعيا للدخول ، ثم تقدمها كما اعتاد رجال الفترة عندما يصحبون زوجاتهم ، لوحظ انها افسحت الخطى حتى تلحق به ، وطوال جلوسها بالمقصورة لم ترفع نظرها عنه ، حتى زعم البعض انها تمست غلمتها بالبصر ، بعد دقائق من الراحة ، وقفت ، مشت فى الممر متعجبة مما تراه ، آهاتها تخفى نشوة اخرى ، يجمع الكل على تعجبها مما رأته من ازهار فى الغرفة الزجاجية ، فل ونرجس وشقائق نعمان ، ولوتس وياسمين ، وانواع اخرى لم ترها ، تعجبت وتطلعت ، اخبرها من له دراية ممن كانوا برفقتها أن بعض هذه الانواع لا ينبت الا فى الصين ، او فى قمم الجبال النائية .

لدقائق استمر المعلم يتطلع اليهم هادئا ، مبتسما ، غير عابىء بجمال السيدة التى استضافها مليك بلاده وشيد من اجلها القصور واليخوت سعيا وتقربا ، حتى قيل انه اشرف بنفسه على رصف طريق ستمر به عربتهما ، بحيث يميل الارتفاع بمقدار معين فتضطر طبقا لوضع جلوسها المدبر الى الاتكاه عليه ، هكذا يدنو ويلامس ، لعل وعسى !.

تطلع المراقبون ، وابدوا الدهشة ، كيف تنمو الزهور في هذا الحيز الضيق ، ما الذى يجمع ورود الشتاء مع الصيف ؟ . بعد ان هدأ الكل ، تقدم المعلم ، فتح الباب والتفت الى الامبراطورة وعندما هم كبير حاشيتها منعه من اجتيـاز العتبـة ، اغلق البـاب ، رآه الواقفون ، يشير الى الازهار ، مومئا ، مفسرا ، شارحا ، لا يدرى احد اي لغة نطق ، قال ان هذا كله مصنوع من خيوط الحرير الدقيقة التى لا يمكن رؤيتها متفرقة ، نسجت وصيغت بمهارة ، أعتى خبراء الزهور لا يمكنه اكتشاف حقيقتها الا بعد اللمس والفحص ، يبـدو بعضها مبلولا بالندى ، وما القطيرات الا مهارة صانع ، هذا السر لم يبح به المعلم ولم يفصح عنه الا للامبراطورة ، لكنه لم ينطق به علنا الا بعد الغارة العنيفة التى جرت احدى ليالى الشهر الاول من السنة الثالثة للحرب العظمى ، تسبب انفجار قريب في تدمير الجدار الزجاجى الامامى الذى توقف عنده خلق من شتى الاجناس والملل ، تعجبوا وتاملوا ، سرعان ما تلاشت الزهور والألوان ، بدا شحوب ثم ذبول ، ثم تحللت ، عندما اكتشف العمال ذلك فزعوا اليه ، طالعهم بعينين صامتتين تفيضان أسى لم يفارقه حتى يومه الاخير الذى أوفى به عامه الرابع والعشرين بعد المائة وثلاثة شهور وستة ايام ، هكذا يؤكد العارفون ، خاصة رجلا اكبر منه بعشر سنوات ، قصير القامة ، نحيلها ، عنده دكان خياطة بلدى ، وما زال قادرا على تمرير الخيط الحريرى من سم الابرة ، أكد انه حضر مولده ، وخاصة يوم السبوع ، اقام والده ليلة ظلت المنطقة تذكرها لسنوات تالية ، كل فقراء الناحية اكلوا طبيخا ولحما وحلوى طيبة واخذوا كفايتهم لمدة اربعة او خمسة ايام اخر ، وزع الجنيهات الذهبية على كل من حضر ، وغنى المطربون ، وأنشد المنشدون ، لا عجب .. انه الولد الاول بعد ست بنات جئن متعاقبات ، حتى فكر المعلم الكبير في تصفية المقهى عند شعوره بوهن الكبر ، لم يقدر على تخيل شخص غريب يقعد في نفس الموضع عند المدخل ، وينفث دخان النرجيلة ، ويدير شئون المكان ، لكن ربنا اكرمه ورزقه بغلام ، قدر له ان ينمو ويصبح ذائع السيرة ، مشهور بحسن الخلق ، ورجولة فياضة ، ألم تفتتن به الامبراطورة اوجينى احدى حسناوات عصرها ؟ . اعجابها لهج به رجال القصر واعضاء السلك الدبلوماسى وقتئذ ، وذكره قنصل ايطاليا في مذكراته التى نشرت قبل تولى موسولينى السلطة .

بعد انصرافها أبدت رغبتها في استدعاء المعلم الى قصر ضيافتها

لاعداد الشاى الاخضر المحلى بالسكر المنبات ، والمعطر بالنعناع وبالفعل .. وكب عربته الخاصة التى يجرها جواد أسود فاحم ذو غرة بيضاء ، اعد لها الشاى وسقاها بيديه ، لكن .. هل خلا بها ؟ .

لا يمكن لأحد الجزم بالنفى او الاثبات . امر صعب ، طبعا رويت عشرات التفاصيل ، خاض ابناء الحى القديم فى الأمر ، طبعا اختلط الواقعى بالمتخيل ، بعد سبعين سنة جاء ممثل الاذاعة البريطانية ، عرض فى البداية عليه شيكا مصرفيا بالعملة الانجليزية ، مقبول الدفع ، على بياض ، مقابل الاجابة على سؤال واحد : عندما مضى الى القصر ليعد الشاى وخلا بها ، هل قال المعلم ما لم يتمكن منه الخديو ؟. تطلع المعلم اليه ، اشار بنصف اصبعه ان يقدم ، ان يقترب منه ، فرح الانجليزى ، ظن انه سيستمع الى الاجابة ، اشرع جهاز التسجيل ، وعندما دنا متاهبا للجلوس على مقربة ، فوجىء بالمعلم يمسكه من ياقته ، يهزه ثلاث مرات ، ثم يرفعه فى الهواء ويبقيه معلقا بينما الرجل يفرفط برجليه ، لعنه ولعن الاذاعة البريطانية والفضول الذى لا يرحم الحى او الميت ، ثم قال بصوت سمعه الجميع انه لو راى الانجليزى مرة اخرى فسيجعل وجهه مطرح قفاه !.

هرب الخواجة ، ويؤكد الحاضرون انه بال على نفسه . وامتلأ رعبا ، غير ان السؤال ظل يتردد ، والاجابات عنه تتنوع ، لزم الصمت فلم يفصح ولم يشف غليلا حتى بعد أن طعن فى السن وتداخلت عليه الرؤى ، تهدلت أطرافه . وتثاقلت نظراته ، وصار تحديقه الى ما لا يرى أكثر من نظره الى المحسوسات ، الا انه فى اقصى حالات ضعفه كان يوحى ببنيان قوى قام يوما ، لم يعد يفارق موضعه فوق الدكة الخشبية التى حفر عليها تاريخ صنعها قبل قرنين من الزمان ، حتى الايام الأخيرة حافظ على ذهابه الى الحمام التركى مرة كل أسبوع ، ولم يمنعه الوهن عن قضاء حاجته بدورة المياه الملحقة بالمقهى والتى جددها وسواها .

فى شبابه هابه الجميع ، وخشيه القريب والبعيد ، بمن فيهم ضباط الشرطة الذين تعاقبوا ، اتقن فنون المصارعة ، واللعب بعصاتين فى وقت واحد ، واستخدامها بمهارة عند نشوب قتال ، ذاع امره فى الشقاوة ، وقدرته على الجماع ، لم تحتمله الا امراة حلبية اقامت فى بيت منعزل بضاحية عين شمس ، لكنه لم يتزوجها ، رغم اقترانه بعدد غير معروف من النساء ، لكنه لم ينجب منهن ، بعد وفاة والده

فجاة وبدون مقدمات تفرغ تماما للمقهى ، اعتنى به وبذل المجهود الاتم ، بعد الطواف والتنقل والجرى هنا وهناك لم يعد يفارق المدخل ، لا صيفا ولا شتاء . من فوق الدكة يدير الأمور بنظراته ، لزم النرجيلة ولزمته ، يقابل الجميع بمودة متحفظة ، مقتضبة وتعبيرات لا تتغير الا عند قدوم عزيز ، ليس بالضرورة من ذوى الجاه أو الشهرة ، كان يخدم بنفسه الملوك ورؤساء الدول ، وكبار العاملين بالمنظمات الدولية والممثلين ، والمطربين ، والشعراء الكبار والكتاب ، ولا تزال صورته وهو يقدم القهوة ضاحكا الى الفريق عزيز المصرى معلقة ، لكن صورة جمال عبد الناصر جالسا بصحبة اثنين مجهولين أختفت بعد عام من وفاته ، كان يقوم محييا من يقدره هو لا غيره ، لم يتحرك عند رؤيته وزراء . وضباط شرطة كبار ، لكنه انتفض مرارا مجرد رؤيته رجلا عجوزا ملتحيا كان يصل فى نفس موعده كل عام ، يجوب الوادى من بلاد النوبة وحتى ساحل البحرين ، الابيض والاحمر ، يزور أضرحة المشايخ ، كبيرهم وصغيرهم ، يقرا لهم الفاتحة ، ويوقد عند كل منهم شمعة ، ثم يمضى ، كان المعلم يتبرك به ، ويعد له الهدايا قبل قدومه بشهر ، وينتظر موعد ظهوره بلهفة لا تخفى ، وعند انصرافه ينحنى مقبلا يده ويطلب منه البركة ، كان يبدو مسرورا عند الزيارة ، مؤكدا لمن حوله ان والده أوصاه بالرجل الصالح قبل وفاته ، يبدو راضيا ، مرتاحا راحة لا تعرفها قسماته الا لحظة مناجاته جواده العربى القديم ، امتطى صهوته زمن الشباب، يقال انهما ولدا فى يوم واحد ، كان يسرجه ، وينظف جسده ، ويطيبه، ويطعمه ، ويسقيه بيده ماء الورد . وعندما لزم الدكة . بان عليه التعب ، وقف جواده الاكحل ذو الغرة الى جواره ، لم يربطه ، كان طليقا من كل قيد ، لكنه لا يبتعد ولا يجمح ابدا ، وفى ايام الصيف الحارة يذب عن وجه صاحبه الذباب ، وينحنى ليتشممه أو ليطمئن عليه ، لا أحد يدرى ، يقسم اقدم العمال انهما يتبادلان الحوار ، كل منهما يفهم الآخر ، أحيانا يومىء ، فيمد الجواد راسه ، عندئذ يهمس له ، والجواد يهز راسه أو يهمهم ، او يطرق حزينا ، او يرفع قائميه الاماميين فى حركة زهو ويصهل بصوت مرتفع متدفق حتى ليسمع من بعيد .

احتفظ أيضا بثلاثة اقفاص بها اربع وعشرون فرخ حمام ، عجيب انه لم يغلق أبوابها قط ، يطير الحمام ويرجع اى وقت ، فى الليل

يتململ ويسمع هديله وغطيطه ، يحط بجواره ليلقط حبا او ليرشف قطرات ، عدد الحمام لم ينقص ، ولم يزد طوال اربعين عاما ، اذا طقت بيضة واطل زغب اخضر ، كان ذلك يعني قرب اجل حمامة كبيرة ، لايتاخر الامر اكثر من يومين ، وربما وقع العكس ، فيسبق الموت الميلاد ، هكذا مضى الامر ، لم يهتز ولم يختل حتى جرى ما جرى .

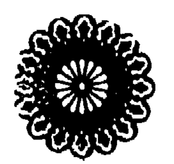
ذلك أن رئيس بلدية العاصمة كان جهولا ، غتيتا ، نائيا ، قرر اعادة تخطيط الحي القديم ، وبناء فندق يصلح للسائحين ، اقتضى الأمر ازالة المقهى ، الحق أن الأمر لم يتم بهدوء ، شرع كتاب لهم شأن في الاشادة بالمقهى ، نبهوا الى اهميته التاريخية وسرد بعضهم الاحداث التي جرت فيه ، والشخصيات التي عبرت فضاءاته ، بدءا من شيوخ الازهر الكبار ، وحتى نابليون بونابرت ، والزعماء السان سيمونيين ، رلاظوغلي باشا ، والامبراطورة اوجيني ، وجمال الدين الافغاني ، وطبعا - الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وغيرهم ، قام بعض محبي المقهى بجمع مئات التوقيعات ، نجوم فن ، ورياضة ، ورجال قضاء ، واساتذة اجلاء ، وندامى انسوا الى اركان المكان وزواياه وامضوا مقادير من أوقاتهم . غير أن هذا كله لم يزد رئيس البلدية الا اصرارا وعنادا ، تحدد يوم معين للاخلاء ، وبدء الهدم .

المعلم تابع ما يجري صامتا من فوق الدكة ، يجيئه المريدون نيهونون ، ويذكرون احتمال صدور امر عال بوقف هذا العبث كله ، كان يصغي ولا يهز راسه ، لا يومىء ، لا يجيب اشارة ولو واهنة ، وعندما امتنع الجواد الاكحل عن تناول الطعام لمدة ثلاثة أيام قبل الوعد ، وعندما كمن الحمام في الاقفاص ، كف عن التحليق او تناول الحب ، وتوارى كل صوت . بدا ذبول واضح حول عينيه ، كان يردد الطرف بين الجواد واقفاص الحمام ، وترتجف شفتاه بما لم يفهمه احد ، ولم يدركه الاقربون .

صبيحة اليوم المحدد لرفع أول معول هدم ، ناداه اقدم عمال المقهى فلم يجب ، كان يسند راسه الى يده ، متمددا على جنبه الايمن ، مشيرا بسبابته ، علامة التوحيد ، فوق الأرض انفرط الجواد ، بانت ضلوعه ، هزل قوامه ، لم ير من قبل الا واقفا ، متخايلا ، اذا تلمس راحة رفع احدى قوائمه لحيظات . سقطت حمامتان من القفص الثاني ، اما ما تبقى فاضطروا الى الصعود على سلم متحرك لاخلائه ،

تجمع القوم ، عظم التأسف ، صاح شيخ ضرير ، ضخم البنية ، اعتاد تدخين النرجيلة صباح كل يوم ، أمر الواقفين بستر جثمان الراحل فللموت حرمة ، عندئذ أقدم الكل ، بكى العمال كثيرا ، بخاصة عندما عثروا تحت رأسه على لفافة تحوى قماش كفنه . وسائر ما يحتاج اليه في رحلته الاخيرة ، توسده مدة طويلة لا يدرى أحد مقدارها . لم يستطع العيش حتى يتنفس هواء يوم يرتفع فيه معول الهدم .

هكذا وجدوا رئيس الجامعة في غرفته الخاصة ، مرتديا ملابسه الرسمية التي لم يظهر بها الا عند مناقشة الرسائل العلمية المتقدمة ، والعشاء الطقوسي ، كان ملتحفا بالعباءة الخالية من الدوائر الثلاث ، لم يقدر على الاستمرار حتى رؤيتها • دفن بها ، كانت آخر عباءة من الرسم القديم ، كانت معدودة من أجل الشارات . لكن . . لحقها ما يطال كل شيء . .





رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية ١٩٩٠/٣٤٧٢

الترقيم الدولى ISBN 977-08-0113-5

١٤٠

صدر من كتاب اليوم
عامي ٩٠ - ١٩٩١

- محمد والمسيح : خالد محمد خالد
- ذكريات عاشق : محمد تبارك
- مصر من تانى : محمود السعدنى
- مصر فى القرآن الكريم : أحمد صبحي منصور
- الأدب فى الدين : د . عبد المجيد دياب
- القاهرة مدينة الفن والتجارة : جاستون فييت
ترجمة د. مصطفى العبادى
- كأس العالم : د . علاء صادق
- سر المياه القرمزية (رواية تركية)
: ترجمة نفيسة ذو الفقار
- أى كلام : أحمد رجب
- نجمة الصباح (رواية انجليزية) : سير رايدر هاجارد
ترجمة مختار السويفى
- الفرج بعد الشدة للتنوخى
إعداد : د . محمد حسن عبد الله
- حكماء وادى النيل : محمد العزب موسى
- أمثال شعبية : د . سيد عويس
- عبقرية المسيح : عباس محمود العقاد
- نوبار فى مصر : نبيل زكى
- شعراء الصوفية المجهولون: د . يوسف زيدان

قريباً فى كتاب اليوم

أحدث ماكتب الساخر الكبير

محمود السعدنى

حمــــار فى الشــــرق

●● مغامرات مصرى ابن بلد فى أوروبا رؤية فريدة وجديدة وساخرة للحضارة الأوروبية .. !

□ ترقب صدوره □

■ كتاب اليوم ■

عدد أول مايو

كسوة الكعبة المشرفة

وفنون الحجاج



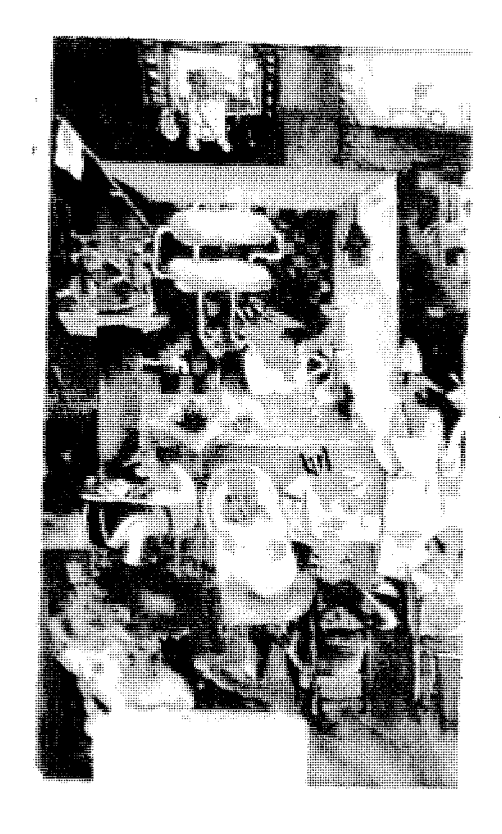
بقلم : إبرهيم حلمى

■ أول مرجع شامل عن تاريخ كسوة الكعبة والمحمل النبوى عبر مراحل التاريخ المختلفة والفنون والصناعات المرتبطة بالحج ..

■ صور قديمة نادرة تنشر لأول مرة ..

■ ترقب صدوره ■

هـذا الكتـاب



.. مقـاهى الشرق . هـذا العالم الساحر . الغنى بالبشر . التجار . من الحاضر . الفنانون . الأدباء . الباحثون عن الشهرة . القادمون من الحاضر . الغارقون فى الماضى . الباعة الجائلون . المتطلعـون إلى السلـوى . يكتب الفرنسيون عن المقاهى الشرقية فى مصر . فى فلسطين . فى عدن . فى الأردن . فى سوريا . فى السعودية . فى العراق . فى تركيا . ويقدمون صورا نادرة عمر بعضها أكثر من مائة عام . وأضفنا إلى ما كتبوه نصوصا أدبية رفيقة دارت فى المقهى . لنجيب محفوظ ، ومحمود السعـدنى ، وجمـال الـغيطـانى ،

كتاب فريد ، وجديد فى مضمونه تماما .